

المنتدى الأدبي

مجلة أدبية شهرية الكترونية

ابن باديس الظاهرة الفكريّة والتربوية بين جحود السلطة و تهميش النّخب..

الأستاذ "المربّي" قاسمي عبد الرحمان" للمنتدى : التربية أوسع وأعظم من أن تتحصر في الهياكل والأرقا





عيسى قارف   شاعر يبدعُ بنكهة وإيقاع متفرّدين

تطالعون أيضا



هسّ ومـــات   أحمد ختاوي

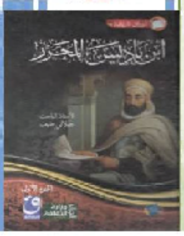


نهاية خدمة   بختي ضيف الله



مفاهيم في حقل شائك   غالم حميد

على الرفوف قراءة لكتاب : ابن باديس المحرّر



عدد خاص

العدد الثاني أفريل 2016

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على نبيه المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين

المنتدى الأدبي الصوت الحرّ لفكر و وجدان المبدع الجزائري ... أسّسها ويشرف عليها الأستاذ جيلاني ضيف

صدر منها05 أعداد ورقية

كل المراسلات توجّه إلى البريد الالكتروني الاتي:

elmountadabi@gmail.com

أسهم في تحرير هذا العدد الأساتذة

جيلاني ضيف

أحمد ختاوي

غانم حميد

بختي ضيف الله

حشلاف خليل

وآخرون........

تابعوا المجلّة على المواقع التالية:

http://elmountadabi.wix.com/di2016
http://www.calameo.com/read/0047049967b78185f1744

التصميم والتصحيح :ج/ضيف

إنّ الأمّة التي لا تملك أدبًا وثقافة ليست أمّة وإنّما هي قطعان من الآدميين الفوغائيين ومصيرها الفناء بلا أثر.........المنتدى

كلمة العدد

رئيس التحرير

أ: جيلاني ضيف



بسم الله الرحمن الرحيم



ابن باديس بين البُناة والجُنـــــاة ....

لسنا بعيدين زمانيا عن ذكرى وفاة العلامة الشيخ ابن باديس رحمه الله تعالى ، إذ تفصلنا عنها أيام قلائل فقط ، لكننا في المقابل ندرك أن مسافات شاسعة تفصلنا عن الرّجل وغاياته ومراميه التي جاهد من أجلها....وإذا كنا نعيش هذه الطقوس الفلكلورية الزائفة من استحضار لصورة الرّجل واستعراض مسار تضحياته وجهوده لإحياء الأمّة الجزائرية مما سرى في بدنها من السقم خلال فترة الاحتلال ...فهذه الاحتفالات والطقوس الزائفة ليست إلا رسالة عجز نرسل بها إلى أنفسنا !! مفادها أننا لم نع الأهداف والمرامي التي كان الشيخ يرحمه الله يطلبها ويقتل الوقت في سبيل تحقيقها....

نعم ..يبدو أنّ واقعنا المعيش وما نراه من تخلّف على جميع الصُعد بدءا من الأخلاق وانتهاء بالأفكار والواقع يؤكّد أن شأوا بعيدا يفصلنا عن جوهر رسالة هذا الرّجل الأمّة...

عندما رسم الرّجل معالم مشروعه أوّل الأمر انطلق من قاعدة أساسية وهي جوهر الشرائع السماوية ؛هذه الحقيقة هي أنّ الإنسان هو الغاية ، وأن أي مبادرة أو فعل في هذه الحياة إنّما ينبغي تأسيسه على هذه القاعدة...فتفحّص النفوس الجزائرية واستشعر الوجع الذي يقضُّ مضاجعها ويقف خلف أنينها الدائم ، تبيّن له أنّ التخلّف والانحراف والضلال واستشراء العادات و السلوكات والطباع المنافية للدين إنّما هي أعراض وليست عللا...ولم ينخدع ـ وهو الطبيب الماهر

الحاذق المتبصر بالعلل والأدواء ـ في التمييز بين المرض والعرض ، كما فعل بعض رجال الإصلاح في عالمنا العربي والإسلامي ، بل أدرك بجلاء أن الأمّة أصيبت من هذا الجسم الغريب الذي أشاع في كيانها هذه الأسقام ، والجسم الغريب هو الاحتلال البغيض الذي مزّق أوصال الأمّة الجزائريّة وبدّد قواها وأضعف قدراتها على النهوض ؛ فباتت جسما مشلولا عاجزا..يترصده الهلاك ليفتك به....

لم ينطلق ابن باديس من توقّعات أو توهمات ، ولم يكن من أولئكم الأطباء الذين يخمنون ويجرّبون الأدوية على مرضاهم ..وينتظروا النتائج ليغيّروا ويعدّلوا..

وإنّما انطلق من حقيقة مهمّ' راسخة وهي أن الاستعمار الفرنسي البغيض هو سبب الشرور والمفاسد التي تفتك بأمته؛ الاستعمار هو ما (ولا أقول من لأنّ عاقلا لا يفترض أن يفعل) أفسد صفاء ونقاء الحياة الجزائرية التي كانت تعيش هانئة تنعم بالاستقرار والرخاء والسعادة؛ ونشر الفساد في حياة هؤلاء الوادعين...

إن أي حركة إصلاحية تنطلق في مجال التغيير وإصلاح وترميم الواقع تستند إلى ثلاثة مراحل :

ـ التشخيص.

ـ اختيار الأساليب والأدوات الكفيلة بالتغيير.

ـ التنفيذ ومراعاة الأولويات.

وكانت دعوة وحركة الشيخ ابن باديس رحمه الله تعالى أنموذجا ومثالا حيًّا لهذه الآلية الدقيقة ، فقد بدأ الرّجل بتحسّس وجسّ بدن هذه الأمّة ، وكانت بدنا سقيما متهالكا تنخره الأمراض والعلل، وتتداعى عليه تداعيا محموما.

الجزائريون يغرقون في الجهل ونسب عالية منهم تشكو الأميّة والجهالة ، وفئة معدودة محصورة في أعوان الاستعمار والأثرياء وأبناء البيوتات فقط هم الذين يسّرت لهم الظروف فرص التعلّم والتخلّص من براثن الجهالة... لقد استطاع الاحتلال في ظرف وجيز أن يقلب الموازين والنّسب فالتاريخ يثبت بما لا يترك مجالا للرّيبة أن نسبة التعليم غداة غزو الفرنسيين للجزائر كانت تفوت نسبته في فرنسا المتحضرة الرّاقية..!!

هذا الجهل المستشري بين الجزائريّن بسبب الفقر والعوز وعدم إدراك وجوب التعلّم واللهث والجريان عقب لقمة العيش في مجتمع فقير ؛ يسيطر فيه الأثرياء والاستعمار لا يمكنه أن يأتي بغير المساوئ والعادات السيئة....وقديما قالوا : إنّ الجهل إذا أراد أن يحطّ الرحال بأرض يستجديه التخلّف قائلا : اصحبني معك!!

وجد ابن باديس الجزائر تغرق في الجهالة والتعليم المتاح فرنسيّ ممنهج لإنتاجِ نوع من المتعلّمين ولاؤهم للغزاة وارتباطهم العقدي بالصليب ، وما كان متاحا من التعليم العربي ؛ انحصر في نسبة محدودة ؛ ولم يكن تعليما يمكنه الإيفاء بما يحتاجه المجتمع المغلوب على أمره.

لقد سعت فرنسا جاهدة لإضعاف القدرة المعرفيّة للجزائريين للسيطرة عليهم وإبقائهم تحت نيرها ، بل وسعت واستماتت في محاربة الدين الإسلامي لأنها تعي أثره في التعليم وترسيخه والحثّ عليه : ولأجل ذلك لم تبق معهدا ولا مدرسة ولم تترك المجال لمعلّم جزائري ، ووقفت بالمرصاد لأي حركة علميّة ؛ لأنّ ذلك من شأنه تهديدها وتعريض مصالحها للخطر...فرنسا تعي أنه ليس في مصلحتها أن يتعلّم الجزائريّون ، وما ذلك إلا لأنّ العلم يتعارض مع العبودية واستلاب الأرض وانتهاك الحقوق...

مجتمٌع متخلّفٌ فقيرٌ يتمرّغ في مستنقعٍ من الجهالة والانحراف والضلال....

كانت هذه الأعراض والفحوصات تثبت أنّ هذه الأعراض يقف خلفها دوما الاحتلال!!

إذا ليس على ابن باديس إلاّ أن يشمّر على ساعديه ليغيّر هذا الواقع السيء؛ ولا يمكنه مفردا أن يحقّق شيئا ذا بال ، لابدّ من أن يستجمع الخيرة من رجال هذه الأمة المنهوبة المسلوبة الغارقة .. لم يكن ذلك أمرا هيّنا في مجتمعٍ فقيرٍ ممزّقِ الأوصال بل كان من العسر بمكان ، ومع ذلك كله لم يستكن أو يضعف بل استطاع أن يجمع إليه الخيّرين من بني هذه

الأمّة فكان معه الإبراهيمي والعقبيّ والميليّ وبيوضُ والعموديّ والتبسيّ وغيرهم من النخبة الجزائرية التي توسّم فيها الخير والإخلاص لأمتها ووطنها وكان محقًّا في ذلك...

انطلق الإمام واثقا أنّ النصر ليس هيّنا وأن آثار الفساد متبديّة ومتجذّرة في النفوس وليس سهلا اجتثاثها ، ومع ذلك لم يستكن ولم يخضع ، بل ولم يشك أو يتململ ، وإنما وضع الخطّة العجيبة وهي تحرير العقل الجزائري من العجز والاستكانة...لأنّ هذه المؤثرات والملوّثات هي ما يعيق الإنسان الجزائري ليدرك حقيقة مأساته العميقة...

والتحرر لا يكون إلاّ بغسل الأذهان والنفوس والألسن وتطهيرها..

تنقية العقول من الجهالة وسيطرة الخرافات والخزعبلات التي سعى الاحتلال إلى ترسيخها لأنها تحقق غاية تغييب الفرد عن واقعه وبالتالي جعله فريسة سريعة الانقياد.

تنظيف النفوس أو قل تطهيرها من العادات والأهواء والطباع المتنافية مع شريعة الإسلام والفطرة الإنسانية ، وهي ذاتها التي نشرها الاحتلال لإسقاط الجزائريين في مهاوي الحيوانية...وفرنسا تريد بشرا بطباع وأهواء حيوانية..ولم نر سائمة ولا هائمة تثور على مالكها وترفض الانقياد له.

تطهير الألسن الجزائرية من اللوثة اللغوية الفرنسية ، فالعربيّة بدأت تتراجع وتتقهقر والاحتلال مدرك لأنّ اللغة وعاء للفكر وعنوان للشخصية ولا يمكن تنصير الجزائريين وفرنستهم إلاّ من خلال اللغة...

ولا يمكننا أن ننسى بأن نوعا من تطهير الأنفس هو التطهير العقدي أو التصحيح العقدي، فالجزائريّون سيطرت عليهم ضلالات كثيرة وبدع عادت بهم إلى مجاهل العصور السالفة ؛ أثّرت على صحّة عقائدهم وإيمانهم ، ولا يمكن تحريرهم منها بين عشية وضحاها..

لم يكن الدواء غير تحرير العقل والنفس واللسان...

واستطاع في ظروف ليست مناسبة ولا هينة وبفضل توفيق من الله تعالى ومباركة منه ، واعتمادا على المخلصين من أبناء هذه الأمة أن يبعث حركة إحياء لم يسبق للجزائر أن عرفتها... وقد عبّر عن هذه الحركة تعبيرا حيّا يفيض بالإعجاب فيلسوفنا الأستاذ مالك بن نبي ـ رحمه الله عندما قال : " لقد بدأت معجزةُ البعثِ تتدفَّقُ من كلماتِ(ابنِ باديسَ) فكانت تلك ساعةَ اليقظَةِ، وبدأَ الشعبُ الجزائريُّ المُخدَّرُ يتحرّكُ، ويا لَهَا من يَقَظَةٍ جَمِيلةٍ مُبَارَكةٍ ! يَقَظةِ شعبٍ مازالت مُقلَتَاهُ مشحونتين بالنّومِ ، فتحوّلتِ المُنَاجَاةُ إلى خُطبٍ ومحَادَثَاتٍ ومُناقشَاتٍ وجَدَلٍ، وهكذا استيقَظَ المعنَى الجَمَاعيُّ وتحوَّلَت مُنَاجَاةُ الفَردِ إلى حَدِيثِ الشّعبِ، فتَسَاءَلَ النّاسُ: كيف نِمْنَا طويلاً؟ وهلِ استيقَظنَا حقًّا؟ ومَاذَا يجب أن نفعَلَ الآنَ ؟ ولقد كانت هَذهِ الأسئلةُ على شفاهِ قومٍ غَمَرَتهُمُ الدّهشةُ ، وما زالوا يتقلّبون في خَدَرِ النّومِ يتلمَّسُون منه فكَاكًا.

...ولقد كانت حركةُ الإصلاحِ الّتي قامَ بها العُلَمَاءُ الجزائِريُّون أقربَ هذِهِ الحركاتِ إلى النّفوسِ ، وأدخَلَها إلى القُلُوب ، إذْ كَانَ أَسَاسُ مِنهَاجِهِم الأكْمَلِ قولَهُ تعالى : ﴿إنّ اللهَ لا يغيّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم﴾فأصبحت هذه الآيةُ شِعَارَ كُلِّ من ينطَرِحُ في سِلكِ الإصلاحِ في مدرسةِ ابنِ باديسَ ، وكانت أَسَاسًا لكلّ تفكيرٍ ، فظَهَرَت آثارُهَا في كُلِّ خُطوَةٍ، وفي كُلِّ مقالٍ ،حتى أشربَ الشعبُ في قلبِهِ نزعَةَ التّغييرِ فأصبَحَت أحاديثُهُ تتَّخذُها شِرعةً ومنهَاجًا ، فهذا يقُولُ: لابُدَّ من تبليغِ الإسلامِ إلى المسلمين، وذاك يَعِظُ: فَلْنَتْرُكِ البِدَعَ الشّنيعَةَ البَالِيّةَ التي لَطَّخَتِ الدّينَ، ولنترُكْ هذِهِ الأوثَانَ ، وذاك يُلِحُّ: يَجِبُ أن نعملَ !يجبُ أن نتعلّمَ!!يجبُ أن نُجَدِّدَ صِلَتَنَا بالسَّلَفِ الصَّالِحِ، ونُحْيِي شعَائِرِ المجتَمعِ الإسلاميِّ الأوَّلِ.[1].

نجح ابن باديس نجاحا عظيما وتحرّر الجزائريون من عقدة العجز والضعف و ثاروا على من اغتصب أرضهم ونهب خيراتهم وطردوه شرّ طردة ، واستعادوا حقوقهم المسلوبة ، وشرعوا يتعافون من أسقامهم الكثيرة....

---

[1] شروط الحضارة /دار الفكر / الفيلسوف مالك بن نبي/الصفحة:24

إنّنا نعيش اليوم على واقع الذكرى ، لكننا في الحقيقة بعيدون عن جوهر رسالتها ومبادئ صاحبها بعدا كبيرا..

لا احسب أن ابن باديس يرضى عن أحوالنا ومآلنا ، ولا أظنه يستصيغ ما نعيشه وما نقوم به من العادات والأفعال : مجتمعنا وإن كان ينعم بالحريّة إلاّ أنه يشكو عللا وأمراض على مستوى الأخلاق والآداب والاضمحلال القيمي المشهود في حياتنا اليومية في البيت والمدرسة وفي الشارع وفي كلّ مكان..

لا أعتقد أن ابن باديس كان يسعد بالمستوى الذي نعيشه اليوم ، ولا أظنه يرضى عن تعليمنا وواقعنا ومكانتنا بين الآخرين...الخلاصة أنّ واقعنا يتعارض مع الصورة التي رسمها هذا المفكّر والمصلح الرّائد للجزائر وشعبها...

ولعلّ السبب في نظري في هذا الأمر هو غياب ابن باديس فكرا ومبادئ عن واقعنا ، نتيجة القطيعة التي ظهرت وتولّدت بفعل فاعل...

فالرّجل الذي لا ينكر فضله بل أفضاله إلا جاحد أو جاهل أصبح مجرّد ذكرى نستحضرها كلّ16 من أفريل من كل عام....غيّبوه عن مقرّراتنا المدرسيّة وأبعدوه عن أحفاده ، وجعلوه غريبا بين بنيه..

ولا أحسب إلاّ أننا سنجني ثمار هذه التغييب المرّة ،هذا إن لم نكن قد شرعنا في جنيها..رحم الله الرّجل وجزاه عن الجزائر وبنيها خير الجزاء وإلى اللقاء في العدد القادم.

أ: جيلاني ضيف

الفاتح من أفريل 2016

حاسي بحبح

سرديات


أ: أحمد ختاوي

هسّ ومــات...

اللحاف يرتوي من هسيس اللحاف في يوم مقدراه هسيس الهس . والبقشيش يرتوي من ذات السقاية..

درويش حتى المات ,,,,أشعث والله لم ا ُكذب

غرز هسه في هس المحكوم عليهم بالاعدام والمؤبد ,ودلف

الى الدهليز ، لم يكن طويلا ولا من أهل الريع ، كان هسيسا ، والله لم ا ُكذب,

ضبطوا في حوزته كمية معتبرة من " الكيف المعالج " سرقوا هسه ، الى يوم يبعثون

وبمخفر الشرطة كان هسيسا بامتياز

سأله المحقق في ذهول يا أخي ا ُكثرت من لفظة " هسيس " هل تعرف معناها ؟

رد في ذهول : كما الفلفل المهسوس

فك قيده ، قال : هسْ هسْ ، هسْ ،

انتشى المهسوس هذا ، رد : هذه الكلمة نهس بها البعير ،والصحيح أن نقول : أهسس يا صاحبي.

ونهشُّ بها تهمنا الباطلة كما ورق الشجر لشياهنا

ضحك الشرطي ملء فيه : أنت المهسوس كما الدقيق ، كما الذي في سقايتك ،في صاعك وقد عبرت نقطة حدود الجمركة ونقطة التفتيش.

رد المتهم .: في هذه الحالة يا صاحبي قد لا نخرج من باب واحد ، فتصيبنا العين ، وتضبطنا الكاميرات.

فك قيده .كانت اللحظة هشيما كما الرخام

كما الإعارة والإعادة إلى غياهب السجون

.كما الخساسة ، وهناك بالدهليز هس ومات ؟؟؟والله لم ا ُكذب ؟؟؟.

سرديات



نهاية خدمة ...

يحمل " عظم الشقاء " بين يديه صورا وملصقات عليها أشعار الطفولة والشباب والكهولة.

القطار سريع جدا ، يترك في نفسه ألما شديدا.

في كل مرة يحاول اللحاق به ليلصق أشياءه على واجهاته الجانبية ليرى كل سكان وطنه إبداعه،فالقاطرات كثيرة وستزور كل ربوعه .

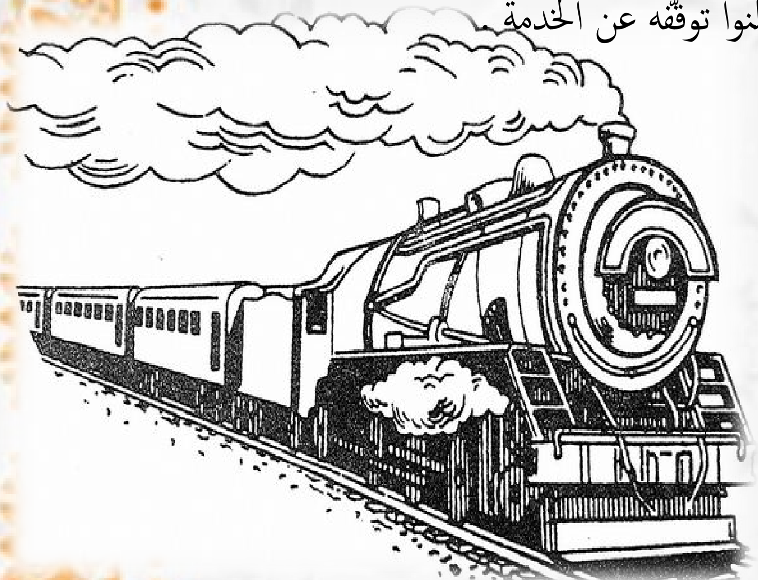
تمنى أن لو يترجّى سائقَه ليبطئه ، لكنَّ الأمر ليس سهلا وكل الناس مستعجلين .

اهتدى هذه المرة إلى فكرة رائعة ورأيٍ سديدٍ ،نام في المحطة الأولى .

في الصباح وجد القطار متوقفا ينتظره،فرح فرحا شديدا و نادى بأعلى صوته: "سأنشُرُ كلَّ أعمالي"..".سأنشُرُ كل أعمالي"..ما أثار انتباه المسافرين حتى قال عنه بعضهم : إنه مجنون !!

ألصقَ كلَّ شيءٍ وانتظرَ انطلاقة القطار ، لكنَّه لم ينطلِق ، ولن ينطلق .

احتفل العمال بعيده المائة وأعلنوا توقُّفه عن الخدمة.



قصائد نثرية

حشلاف خليل

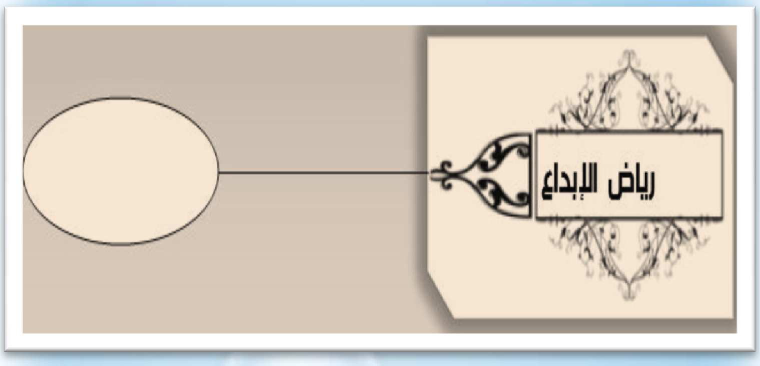
سؤال البياض



حشلاف خليل

هل خربشت الآن ؟
تسأليني ....
وكم أكره هذا السؤال.
أتخيّر له:
كم خرّبت العالم اليوم ؟
لماذا توثقين يديك
بسؤال البياض؛ثلجُ حبِّنا بِدَمِ الفنّ ؟
كم لوحةً تريدين ثمناً
بهجة لقلبك الملتاع
عن حرفٍ
يسيلُ ، مدادا....
لمنتصف الليل في غمرة
قمرنا الفِضيّ ؟
ألا تعرفين أن أمدادُه من دمي
ورحيقُ القصيدِ مِن مَوْت
ثواني الروح أمشَاجَا
وأن المشي على صراط الشعر أحزانا
وأوزانُهُ من أثقال ذنب لم نرتكبه
وأُمّنا الأرض تنطق فينا نيرانا
وأنَّ لا راحة لشاعر مثلي سوى
بموت الشعر في مهده
وحروبنا مع الاستعارةِ حربٌ فاشلةٌ
لا أحد يصل إلى مجازِهِ
ومن يقتربْ يأذنْ له
بالعذاب...........................

فلا تسأليني:
موت القصيدة حين أكتبها
فانا المجازُ وأنا القصيدةُ



الغيمة التي التي عشقت نبيّا.....

هيَ غيمةٌ .. جوّالةٌ تترحّلُ
جرّارةً ذيلا..تروحُ وتُقبِلُ
مغرورةٌ ميّاسةٌ..رجراجةٌ
خَوْدٌ، نؤومٌ للضحى..تتدلّلُ
العقدُ من ياقوتِ (صَنْعا)، أخضرٌ
والثوبُ خزٌّ، والمباخر صندلُ
تقضي النهار تقيسُ مِن أثوابها
ما تشتهيه كطفلةٍ ..وتُبدّلُ
مجنونةٌ..تلهو.. تبعثِر نفسَها
وتعودُ تجمعُ نفسَها تتشكّلُ
والليلَ تسهرُ كي تُمشّط شَعرها
وتفكُّهُ تحت النجوم..وتجدِلُ
مرّتْ عقودٌ.. وهي ترفع أنفها
وترُوعُ مِن خُطّابها ، لا تقبَلُ
يأتي الخريف وينقضي، وشتاؤهُ



محمــد جربوعة

ويؤوبُ وهْيَ مصرّةٌ،لا تهطلُ
لم تُلق يوما (للضنا) بالا، ولم
ترجُ الزواجَ ..كأنها تتبتّلُ
ما سال منها خيطُ ماءٍ مرةً
ما هزَّ فيها شعرةً مُتغزّلُ
مرتْ عليها غيمةٌ أخرى،لها
نورٌ..ووجهٌ فاتنٌ ..يتهلّلُ
همستْ بشيءٍ .. والإناثُ طبيعةً
يهمسنَ حينَ يقلنَ ما قد يُخجِلُ
فتبسّمتْ .. وضعتْ على فِمها يدا
حمراءَ بالحنّاءِ تفتِنُ ، تَقتُلُ
قالت لها : (وعيونهُ؟) قالت لها :
(هو أدعجُ العينينِ ..حلوٌ.. أشهلُ)
مَشَتا إلى جهةِ (الحجازِ) .. وثرثرتْ
هذي تجيبُ .. وتلكَ شوقا تسألُ
شبكتْ أصابعها على رأسٍ وقد
قالت لها : شوّقتِني .هل يُعقلُ ؟
حثّتْ خطاها .. والقلوب إذا مشتْ
لحبيب قلبٍ غائبٍ تَستَعجلُ
..)فَصِفيهِ لي) ؟ قالت: يَميلُ إذا مشى
واذا تحدّثَ في المجالس يُقبِلُ
مقرونُ حاجبهِ بحاجبه .. ومِنْ
حَوَرِ العيو ن كأنه متكحّلُ
صلتْ عليه وسلّمتْ.. في همسِها

فاهتزَّ في الوجهِ النقابُ المُسبَلُ

) -زيدي) .. فزادتْها: (مفلّجُ سِنّهِ

وله ثنايا إن تبسّمَ ، تُذهِلُ

عِطريُّ ريحٍ ..ياسمينٌ ثوبُهُ

وإذا تعرّقَ – صدّقي- فقرنفلُ

وأرقُّ مُمْسِكِ معصمٍ ، في رحمةٍ

كفّاهُ – إن شئتِ الحقيقة - مخملُ

مطبوعُ وُدٍّ .. لا يغيّرُ قلبَهُ

ذهبٌ تحكُّ يداكِ لا يَتبدّلُ

-زيدي..

-تجُنُّ الخيلُ مِن لمْساتهِ

وتروحُ تحفرُ في الرمال.. وتصهلُ

إن مرّ قربَ سنابلٍ،وشَكتْ لهُ

أخفى حياءً ناظريْهِ المِنجَلُ

أو مدّ كفّا للزهور، تمايلتْ

لِيديْه ترجو قطفَها وتُؤمّلُ ((

قالت: ((لعلّ الزهر يعرف قاطفا

مترفّقا مِن قاطفٍ لا يحفلُ ((

)) ولعلّها قرأتْ حديثا مرسلا

-أنّ الزهورَ بكفّه لا تذبلُ ((

)) -آهٍ ..وماذا ؟((

)) -رائعٌ في صمته

مثل الخيا.....؟

بل فوق ما يُتخيّلُ

قمرٌ - وأيمُ اللهِ – في استهلالِهِ
ويصيرُ فتنةَ مَن رأى إذ يكمُلُ
في رمْشه وطَفٌ .. وفي نظْراتهِ
جنّاتُ عدنٍ ، مَن أتاها يدخلُ
كم قد تقطّعَ نحوهُ قلبٌ وكمْ
دَمِيَتْ على طرُق الصحارَى أَرجُلُ
مبحوحُ صوتٍ في كلامٍ مُعرَبٍ
مثل الجمان منضّدا يتسلسلُ((
وهُما على أرجاءِ (طيبة).. شدّتا
كفّا على قلبٍ .. وحُرَّ المِرجلُ
فقدتْ بقيةَ عقلِها إذ أبصرتْ
قطعانَ غيمٍ للنبيِّ تُهرْولُ
ورأتْ قوافلَ للسحاب تدافعتْ
حول (المدينةِ) كالحجيج تُهلّلُ
جاءت بها ريحُ الحنينِ تسُوقها
سَوْقَ الجِمال إلى المنازلِ تحجُلُ
والشوقُ قيلَ قليلُ صبرٍ، راجفٌ
ما عنده وقتٌ، ولا هوَ يُمهِلُ
والغيمُ مخلوقٌ رقيقٌ عابدٌ
مثل ابن آدمَ..حين يعشقُ يرحلُ
للغيم قلبٌ كابن آدمَ عاشقٌ
وله به حُبٌّ قديمٌ أوّلُ
ويحبّ (طهَ) صادقا.. لولا القضا
ما فوقَ مخلوقٍ سواهُ يَهطلُ

هذي الغيوم تجيء تسقي قبرَهُ
مثلَ السلامِ .وبعد ذلكَ ترْحلُ
ليستْ –وربّكِ- (فارسيّةً) حُبّها
لا ترتمي من حولهِ وتولولُ
لا تمسكُ (الشبّاكَ) تعقِدُ عقدةً
فيهِ، ولا تشكو ولا تتوسّلُ
ولها بعشق الهاشميّ مذاهبٌ
مما روى (شيخا الحديث) ،و(حنبلُ)
ولها أسانيدٌ صحاح كلُّها
مُعنعنات كلّها تُتقبّلُ
ولكلّ غيمٍ في المحبة رعدُهُ
ولكلّ غيم في المشايخ جدولُ
شعرتْ بشيء في العيونِ .. فمسّحتْ
في كمّها .. لم تدرِ ماذا تفعلُ
هي عِزّةٌ .. ما أمطرتْ يوما ولا
عرفتْ رعودا في الضلوع تُزلزِلُ
شعرتْ بآلام المخاض تشدّها
وبغيثِ خيرٍ جوفَها يتململُ
بِتردُّدِ الأنثى ، تحاول شرحه
وتكاد تنطقُ ما تحسُّ .. وتخجلُ
هطلتْ..ككل الهاطلاتِ، وزغردتْ
غيدُ السحابِ ، وضجّ ذاكَ المحفلُ
همست تقولُ - وقد تجمّع حولها
غيمٌ فضوليٌّ كثيرٌ يسألُ–

إنّ الأمّة التي لا تملك أدبًا وثقافة ليست أمّة وإنّما هي قطعان من الآدميين الفوغائيين ومصيرها الفناء بلا أثر.........المنتدى

((قد عشتُ عمْرا قاحلا ،يا حسرتي
حُلمي على رفٍّ ، وقلبي مُهمَلُ
والآنَ في أرض النبّي ، بنسمةٍ
منه أحسُّ بحالتي تتبدّلُ
وسَنا السحابِ .. إذا أحسستُ بالهوى
كُنْتُ حوّا .. دون شيءٍ تحَلُ))

كل الكلام خدش للسعة اللقاء



الطّاهــر خدّاش



ليس لي موعد هذا المساء...
سأكون كما العادة...
وحيدا...
شاردا...
أمسح بعيون الحيرة
جدران الذكريات.
أكلم ظلي الممدود أمامي
أربت على كتفي
ألملم شظايا الذاكرة
المبثوثة على رصيف الخيبة.
سأحكي لظلي كم أنا وحيدا
سأحكي له عن جفاء الفرح لروحي الجريحة
و عن لسعة الشوق للصحبة حين المساء.
سأحكي له عن أسعار النفط
و عن سياسة الحكام
لردأ تصدع الأحلام
سأحكي له عن بطش الغرب
و عن استراتجية اليهود

لمحاربة الذكورة
و عن رعشة العذراء حين النكاح.
ليس لعذرائنا قبيلة تحميها
ليس لها مخالب لصد الأعداء.
ليس لها إلا صرخة تعرينا
و دمعة تغرقنا في يم الفضيحة
و دم مسكوب على جسد الخريطة.
ليس لها إلا الله.
سأكلمك أيها الظل
عن حلمي المؤجل إلى حين ميسرة
سأكلمك عن أملي المنفي
خلف سراب الأوهام
سأكلمك أيها الظل عن أبي
و عن شوقي لحضنه
و رائحة التبغ في ملابسه
و عن نظرته الحائرة حين الاحتضار.
سأكلمك عن حزني
عن غضبي
عن ضعفي
عن جبني و سر البلاء.
سأكلمك أيها الظل عني
فلا أحد سواك يسمع البكاء

الراصد

المفكّر والكاتب والمترجم السوري جورج طرابيشي يودّع عالمنا......

تناقلت وكالات الأنباء نبأ عن وكالة رويتر للأنباء خبر وفاة المترجم والباحث والمفكر السوري جورج طرابيشي ي الأربعاء في باريس عن 77 عاما.

ولد طرابيشي في مدينة حلب عام 1939، وحصل على الليسانس في اللغة العربية، ثم درجة الماجستير في التربية بجامعة دمشق.



وعمل مديرا لإذاعة دمشق بين عامي 1963 و1964، ورئيسا لتحرير مجلة "دراسات عربية" بين عامي 1972 و1984، كما عمل محررا رئيسيا لمجلة "الوحدة" أثناء إقامته في لبنان بين عامي 1984 و1989.

غادر لبنان إلى فرنسا التي أقام بها متفرغا للكتابة والتأليف، وترجم العديد من أعمال كبار المفكرين والفلاسفة الغربيين، مثل هيغل وفرويد وجان بول سارتر وسيمون دي بوفوار حتى فاقت 200 كتابا.

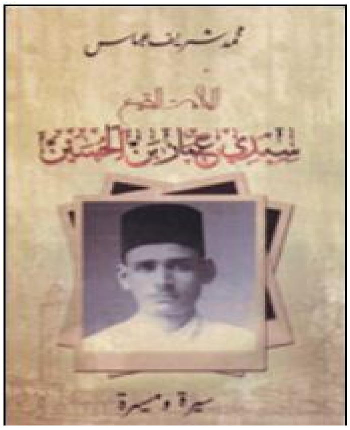
كما قدم عددا من الدراسات والأبحاث في الفكر والفلسفة والنقد الأدبي، منها "الماركسية والمسألة القومية" و"رمزية المرأة في الرواية العربية" و"مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة" و"مصائر الفلسفة بين المسيحية والإسلام".

ومن أبرز أعماله الفكرية سلسلة "نقد نقد العقل العربي"، وهو عمل موسوعي استغرق فيه نحو عقدين.



إصدارات :

ـــ العلامة الشيخ سيدي عمار بن الحسين. تأليف محمد شريف عباس



بقلم: عبد الحميد مغيش

يستعرض المؤلف محمد شريف عباس في هذا الكتاب، ذي الـ 100 صفحة من القطع الصغير، مطبعة حسناوي بالجزائر العاصمة، سيرة ومسيرة الوالد العلامة الولي الصالح الشيخ سيدي عمار بن الحسين بن الحاج الطاهر بن عبد الله عباس المولود سنة 1904 في عرش أولاد سي زرارة بالرميلة، التابعة لبلدية قايس، في ولاية خنشلة.

في التقديم، يبرر المؤلف تلك الرغبة الملحة منذ سنوات في تسجيل ما يمكن ما تسعفه به الذاكرة، حيث يذكر بأنه رأى "أبناءه وأحفاده ينيفون عن الستين وأمثالهم من أبناء العمومة وأحفادهم يغوصون شيئا فشيئا في بحر يومياتهم. ولأن حياة المرحوم كانت حافلة، ومكثفة، ومكرسة في حيها الا ُكبر لخدمة الدين الإسلامي، وللتصدي للمؤامرات الاستعمارية، "تراني اليوم وقد مضى ما مضى من الزمن على رحيله مازلت أستلهم الكثير من المواقف والتصرفات مما تراكم في عقلي الباطن من موروثه الخصيب الذي ظل يلازمني ويسافر معي طوال العمر".

ويقف المؤلف عند الوسيلة المثلى للإطاحة بتلك المؤامرات، وهي العناية بالنشء ونشر التعليم، بالتوازي مع تجفيف البؤر، التي انتشرت فيها الانحرافات والبدع.كما يستعرض أعمال بعض معاصري الشيخ العاملين في حقل الإصلاح أمثال الشيخ العربي التبسي 1895- 1957 حائز على الشهادة العالمية في العلوم الإسلامية، اغتالته السلطات الفرنسية، الشيخ مشري العدوي من مواليد أولاد حناش بولاية برج بوعريريج، المدعو محمد العدوي أحمد رضا حوحو1911- 1956 تخرج من مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة، وساهم في تحرير مجلة المنهل، استشهد في 1956. مخلفا آثارا أدبية هامة منها: غادة أم القرى، صاحبة الوحي ونماذج بشرية. وفي القاهرة، تمكن الطالب سيدي عمار بن الحسين من الالتحاق بجامع الأزهر، وافدا من الشام مرورا بفرنسا، بناء على توصية الأمير خالد، ونسج في رواق المغاربة علاقات مع إخوان له من الجزائر وبلاد المغرب، لاستطلاع أحوال الناس فيها، والاستفادة من الحوار الفكري بين الاتجاهات المختلفة السائدة آنذاك، حيث مافتئت جذوة ثورة الإصلاح في مصر بقيادة جمال الدين

الأفغاني تنتقل من يد إلى يد، بما في ذلك أيادي الطلاب الوافدين إلى الأزهر، وإلى دار العلوم من مختلف البلدان الإسلامية التي كانت أغلبيتها ترزح تحت الوصاية أو الانتداب أو الاحتلال.جراء الاشتباه بأمره من قبل قوات الاحتلال البريطاني، تم سجن الطالب عمار بن الحسين ثم نفيه خارج مصر، وهنا تشكلت صورة الوطن الأم تحت نير الاستعمار الفرنسي، وتأكد له أن الاستعمار ملة واحدة. وأثمرت حيلته بترحيله على ظهر باخرة إلى تونس التي نزل فيها أواخر سنة 1926. وكانت وجهته نحو جامع الزيتونة حيث درس الفقه المالكي والقراءات، والتفسير، والسيرة النبوية،إلى جانب الخطابة، وفن التبليغ. أثناء ذلك، عاصر عمار بن الحسين كوكبة من العلماء والعاملين في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي الذي ساير الحركات النقابية والسياسية المغاربية



المنادية بالاستقلال. من بينهم على سبيل المثال الشيخ إبراهيم النيفر، بلحسن النجار، محمد الحطاب بوشناق، محمد الشاذلي الجزيري، الشيخ عبد السلام التونسي، محمد الطويبي، محمد الشريف التواتي ،عبد الرحمن المازغني ،الشيخ محمد السويح، ومحمد الهادي العلاني..وغيرهم.بعد حصوله على شهادة التطويع،عاد الشيخ عمار بن الحسين إلى الجزائر، ولطالما أعجب بموقف الطلبة الجزائريين الزيتونيين في مناصرة مطلب الاستقلال في الحركة الوطنية،كما كان متابعا لكتابات وجهود العلماء الجزائريين وفي مقدمتهم العلامة عبد الحميد بن باديس.اتصل بهذا الأخير في قسنطينة ، وشجعه على الاستقرار بزاوية الشيخ سيدي صالح بن عباس.ويعتبر هذا أحد أبناء عمومته، أسس أبوه الشيخ سيدي العياشي بدوار أولاد فاضل حوز عين لقصر بباتنة هذه الزاوية على الطريقة الرحمانية. بمسجدها، تولى الشيخ عمار بن الحسين الإمامة وصلاة الجمعة والعيدين، كما قام بالوعظ، وعزز دور الزاوية في تدريس علوم الدين واللغة.وكان من أوائل من أوفدت الزاوية إلى جامع الزيتونة نجلي الشيخ، وهما: سي عبد الحفيظ عباس الذي استشهد في 1961، وسي الطاهر عباس الذي استشهد بجبل بوعريف في 1957 في معركة ضارية استشهد فيها قائد المنطقة محمد عرعار المدعو بوعزة و28 مجاهدا.قام الشيخ عمار بن الحسين شأن العلماء العاملين بدوره كإمام واع بمتطلبات المرحلة، متأثرا في الوقت نفسه بمبادئ ثورة عبد الكريم الخطابي في المغرب، والأمير خالد، ومن بعده من رواد الحركة الوطنية الجزائرية.

حفلة تكريمية لمولود فرعون بفرنسا

تنظم جمعية "نظرات على السينما الجزائرية " سهرة تكريمية لروح الكاتب الجزائري مولود فرعون الذي اغتيل في 15 مارس 1962 على يدي منظمة الجيش السري (أو ،أ، أس) يوم الجمعة المقبل بمدينة مونبيلي بفرنسا.

وحسب المنظمين يتضمن برنامج هذا التكريم عرض الفيلم الوثائقي مولود فرعون (2009)للمخرج علي موزاوي الذي يرصد مسار و أعمال مولود فرعون .

ويقوم المخرج في هذا العمل بالعودة إلى مراحل من حياة الكاتب و المعلم المغتال من قبل المنظمة الإرهابية عبر المزج بين إعادة تشكيل محيط تلك الفترة و وثائق و صور و شهادات وأيضا مشاهد من الأرشيف المصور ، كما برمج

المنظمون لقاء ونقاش حول موضوع "مولود فرعون الإنسان في مواجهة العنف "تقوم بتنشيطها الجامعية المختصة في أدب فرعون و آلبير كامو ، كريستيان شولي -عاشور.

و ستختتم هذه السهرة التكريمية بقراءات ممسرحة لمقتطفات من "الجريدة 1955-1962) من قبل الممثلة Eloise Allibi (الواز إليبي) حسب المنظمين .

مولود فرعون ولد في 8 مارس 1913بتيزي هيبل وعين مدرسا في مسقط رأسه بعد دراسات بمدرسة الأساتذة بالجزائر العاصمة و في 1960 عين مفتشا في المراكز الاجتماعية بابن عكنون (الجزائر العاصمة) و اغتيل بالعاصمة في 15 مارس 1962 رفقة 5 من زملائه.

ترك مولود فرعون مجموعة أعمال أدبية ثرية من بينها " ابن الفقير" (1950) و(الأرض و الدم "(1953) و"الدروب الوعرة " (1957) إلى جانب مؤلف عن أشعار سي موح أومحند (1954) وكتب حول المدرسة و التربية و المجتمع.

ومضات سريعة من الفكر الباديسي

ـ سعادة البشر في الحرية وشقاؤهم في الاستعمار والاستعباد

"إنّنا نفرّق جيّدًا بين الرّوح الإنسانية والرّوح الاستعمارية في كلِّ أمّةٍ ، فنحنُ بقدر ما نكره هذه ونقاومها، نوالي تلك ونؤيّدها ، لأنّنا نتيقّنُ أنّ كُلَّ بَلَاء ا لعالَمَ هُوَ مِن هذِهِ ، وكُلَّ خيرٍ يُرجى للبشريّة إنّما سيكونُ يوم تَسُودُ تلك فلتسقُطْ الروح الاستعمارية ، ولتَندحِرْ ، ولترتَفِعْ الرّوح الإنسانية للبشر..."

ـ الأمم العظيمة تتغلّب على أزماتها بتاريخها وعناصر هويّتها...

" إنّنا نعتصم بالحقّ ، ونعتصم بالتواضع عندما نقول : إننا شعبٌ خالدٌ ككثيرٍ من الشعوب، ولكننا ننصف التاريخ إذا قلنا: إننا سبقناها في ميادين الحياة ، سبقناها بهدايتنا ، ونشرنا بينه الشريعة الحقّة قبل أن تتكوّن، هذه الأمم وسبقنا هذه الأمم في نشر الحقّ ، أيّام كانت في ظلمات من الجهل الحالكة أيام كانت تسبح في لجج من الأوهام والخيالات. وذلك ما كنّا فيه ، وما ستعود إن شاء الله إليه، وإنما علينا أن نعرِفَ تاريخنا ، ومن عرف تاريخَه جديرٌ بأن يجد لنفسه منزلة لائقة به في هذا الوجود.

ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغرّ المستقبل السعيد إلاّ هذا الحبل المتين :اللغة العربيّة، لغة الدّين، لغة الجنس ،لغة القوميّة ، لغة الوطنية المغروسة.

إنّها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغرّ الميامين أرواحهم بأرواحنا ، وهي وحدها اللسان الذي نعتزّ به وهي الترجمان عمّا في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار،وما في النفس من آلام ولآمال "

العلاّمة ابن باديس ـ رحمه الله ـ



ملف العـــدد



بقلم: أ: جيلالي ضيف
رئيس التحرير

نخبُنا الفكرية والأدبية مسؤولة ـ قبل الجهات الرسمية ـ عن ترسيخ و ترسيم حضور ابن باديس في الذاكرة الجزائرية الناشئة ترسيخا يجلّ عن الإنكار والجحود والتشكيك باعتباره الرّجل الذي أعاد إحياء الأمّة الجزائرية..بعد أن كادت تتلاشى وتفقد حضورها وهويّتها

المنتدى الأدبي أفريل2016

هكذا أنصفتُ الرّجل:

تطالعون ضمن ملف العدد :

خمس محطّات في حياة العلامة ابن باديس ـ رحمه الله :
جهاد واجتهاد وسياسة الشيخ ابن باديس.
الثانية : ـ (الإصلاح الديني ؛ التربية ؛التعليم والمرأة) مرتكزات للتحرُّر في فِكرِ وعَمَلِ ابنِ باديسَ.
الثالثة : ـ ابن باديس بين " الأدب الإصلاحي" والأدب الإسلامي.
الرابعة ــ تحرير بل التحبير...

ـ هذه المواد منقولة عن كتاب [ابن باديس المحرّر] للمؤلف الطبعة الأولى ـ وزارة الثقافة 2015.



المحطة الأولى : فصولٌ من جهاد واجتهاد وسياسة الشيخ ابن باديس

لا شكّ أن نظرة دقيقة وفاحصة للمسار الإصلاحي والإحيائي الذي خاضه الإمام ابن باديس تفضي بالباحث إلى تأكيد النظرية القائلة بأنّ الشيخ رحمه الله تعالى كان نظريّة تربوية وفكرية متميّزة تكونت وأخذت خصوصيتها من خلال الظروف التي أسهمت في توجيه الّرجل فكريا ، كما أسهمت في صوغ أفكاره ومواقفه ، وآرائه في الإصلاح والتحرير والتربية ،والظاهرة الباديسيّة ظاهرة متميّزة وتحمل خصوصية الزمان والمكان ، فضلا عن عبقريّة الرجل في مواجهة المشكلات التي كانت تصنع مأساة الشعب الجزائري...من جهل وتخلف واضطراب قيمي واحتلال وضغوط يمارسها الغزاة على كلّ ما له صلة بالهويّة والانتماء العقدي...

ولا يمكن لأَحدٍ أن يتجاهل أو ينكر الدور والأثر الذي تركه ابن باديس و جمعية العلماء المسلمين في الحياة الجزائرية ؛ إن على مستوى العقيدة أو على مستوى الفكر أو السياسة والاجتماع، فهذه الطّاقة التي هزّت حياة هذا الشعب الذي كان قاب قوسين أو أدنى من الفناء والتلاشي وزلزلت عروش الضلال والتخلّف والسيطرة باسم الدين وبسبب الجهل المطبق، غيّرت فهمهم أو فهم بعضهم على حدّ أدنى للحياة والدين ، وكشفت لهم حقيقة الحياة ، وسّر الاستمتاع بالحياة الإنسانية ، بكشفها حقيقة الاستعمار ومراميه وما كانت الجمعية لتجد الاعتراف والإقرار بالفضل في ما أنجزته في مسلسل الجهاد الفكري والعقدي والسياسي من قِبل الجميع، فقد تنكّر لها البعض أيام كانت تخوض حربها ضد الاستعمار، فاتهموها بأنها امتداد للحركة الوّهابية وهي براءٌ من ذلك ، وإن أشار البعض إلى تأثرها بهذه الدّعوة، واتهموها بالعمالة لأطراف أجنبية ، وكتب عنها كثيرون في الصحافة الفرنسية والجزائرية الموالية للاحتلال ، وقالوا عنها بأنه دعوة رجعية تقف في وجه الحداثة وتعرقل مسيرة الجزائريين في طريق التقدم والحياة المتمدّنة الكريمة ، ووصفوها بكلّ ما من شأنه أن يسيء إليها ويشّوه صورتها لدى الجزائريين ، أملاً منهم في أن ينصرف عنها ، ويعارضها ، ولكنهم

ولحسن حظّنا نحن جيلي الاستقلال وما بعده ، زادوها قّوةًومضاءً ، وكأنّ تنفيرهم الناسَ منها كان سحرا معاكسًا، جعلها لا تنال المباركَة والرضا فحسب بل وتنال الدّعم المادي والمناصرة ، فكانت الأّمة تستجيب لأي دعوة يُطلقها الشيخ ابن باديس في التظاهر أو العصيان والمخالفة ، وهذا ما كان يثير حفيظة هذا الجناح المعادي الذي تشكّل من المستَلَبين . بصيغة اسم المفعول . ثقافيا ومن مناهضيه من بعض شيوخ الطرق والزوايا، إذ أنهم لم يكونوا جميعا ضدّها ، كما أنها لم تكن ضدّهم جميًعا.

ومن الطبيعي أن تمتّد سلسلة الاتهامات والانتقادات لتعّم إلى أيامنا هذه ، فلا أستغرب أن أقَرأَ مقالاً في التعريض بها ، أو الهجوم عليها وانتقاد منهجها في الإصلاح ،فهذا أمر طبيعيٌّ وصحيٌّ جدًّا ، لكن ما أستنكره وأستغربه أن أجد في واقعنا من يُنكر عليها أدوارها الكبرى في تحرير الأّمة وتفجير الثورة المباركة.

وإذا أنكر البعض على الجمعية هذا المجد فكأني به يمحوها من الوجود ويسمها بالفشل والخيبة ،لأنّني لا أزال أرافع عن فكرة كون : " أن ابن باديس لم يقم بما قام به من تعليم وتهذيب ومحاربة للبدعة ومناهضة للاستعمار لتحسين ظروف الجزائريين لمجّرد الإصلاح فقط وإنّما فعل ذلك ليحّرر هذه الأّمة من عبودية الاستعمار وتبعاته ، وانتهج في بداية ذلك منهجا ومقاربة مختلفين عن مقاربة الثورة والسلاح والدّماء واختار منهج التحرير الفكري واللغوي والعقدي كطريقٍ للتحرير السياسي أي تحرير الأرض1 وبالتالي فإن ثورة التحرير لم تكن سوى واحدة من ثمار حرب التّحرير التي بدأها الشيخ ابن باديس بالكلمة لتتحّول إلى عقيدة ممزوجة بالوطنية التي تحثّ على الجهاد والتضحيّة .

وهذه الحقيقة قد يعتبرها البعض نوعا من المبالغة والتعاطف مع الجمعية وشيخها، وقد لا يسلّم بها كثيرون باعتبارها . في نظرهم . تُقصِي لفيفا من الشخصيات الوطنية التي عملت من أجل الغاية الكبرى وهي تحرير البلاد، ولا أحسبها تقصي أحدا ، فالسياسيون وزعماء الحركة الوطنية الآخرون كانوا يعملون وفق سياسات وقناعات شخصية أو حزبية معيّنة ،أسهمت في توعية وحشد الجماهير الجزائرية ، وتعبئتها للمصير المحتوم وهو الحرب ، إلاّ أنها كانت تختلف مع المقاربة الجليسيّة التي كانت تقوم على عدم المغامرة بدخول الحرب التي ستكون نهايتها وخيمة على هذا الشعب الذي يحتاج إلى أن يستعدّ فكريا

1 (****)

وعقديا ، هذا الشعب الذي شحنه ابن باديس بشحنات عالية من كهرباء الوطنية كما يفهمها ويدعو إليها الإسلام.

لا أعتقد أنّ من الوجاهة الفكرية ومن العدالة والأمانة ومن الحقيقة التاريخية أن نُنكر على ابن باديس ودعوته دورهما الكبير والأساسي والجذري في إذكاء روح الثورة على الاحتلال والعبودية ، بل إنني لا أبالغ إذا ما قلت لو أنّ الله أمدّ في عمر الشيخ ابن باديس . رحمه الله . لما كان إلا جنديًا أو ثائرًا يحمل السلاح في وجه الغُزاة العُتاة!!

ولا أحسب أن مفكّرا وفيلسوفًا كمولود قاسم نايت بلقاسم يجافي الحقائق ويقع في درك الذاتية حين يعتبر الشيخ ابن باديس الأب الّروحي للثورة الجزائرية ،فهو الذي أملّها بالفكر والعقيدة اللذين صاغا إيديولوجية الكفاح والثورة.

"فهو لم يُعدّ الساعد الذي يمسك البندقية والرشاش وإنّما أعدّ القلوب والعقول التي لا تتحكّم في السواعد فحسب وإنّما تتحكّم في الأبدان كلّها فتدعوها إلى رحاب التضحية و ساحات الوغى ولما فائدة السواعد القويّة المفتولة إذا لم يكن وراءها قلوب لا تخشى ولا تهاب ، قلوب مؤمنة صابرة محتسبة"2

عندما نعود بالذاكرة التاريخية إلى الفترة الحالكة والثريّة بحركة ونشاط ابن باديس في آن واحد ، وهي فترة الاحتلال ، وعندما نمعن النظر في واقع الحياة الفكرية للمجتمع الجزائري فإننا نجد تيارين يهيمنان على هذه الحياة :

. التيار الإصلاحي العروبي الإسلامي الذي يريد أن يقف في وجه الاحتلال الفرنسي الساعي إلى تغريب الأمّة الجزائرية واجتثاثها من أصولها العربية الإسلاميّة وتحويلها إلى أمّة أخرى تابعةً لفرنسا لاهويّة ولا انتماء لها ، وإنّما هي ابنة الحاضر الذي لم يسبقه ماضٍ!!

كان هذا التيار الذي مثّلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بشيوخها وخاصّة ابن باديس والإبراهيمي ، وهو التيار الذي وجدت فيه فئات المجتمع الجزائري المتنفّس والأمل في إمكانيّة التغيير وإحداث القطيعة مع الفساد المستشري في العادات والعقائد، هذا الفساد الذي كانت السلطات الفرنسية تسانده بالمال والحماية والدعم المعنويّ لتسيطر به على عقول العامّة وتجعلهم قطعان يقودها جهلة من بعض شيوخ الزوايا الذين باعوا ذممهم وضمائرهم لفرنسا والشيطان. وقد استعمل هذا التيار أدوات كثيرة كالتعليم الذي يعتبر إنجازا متميّزا رائعا لهذه الجمعيّة رغم محدودية الإمكانات ومضايقات السلطات الفرنسيّة

2 صفحات من عبقرية الجزائر /المؤلف/ مخطوط.

والمعيقات الأخرى، وكان هذا التيار الإصلاحي المنادي بإقامة مجتمع عربيٍّ إسلاميٍّ يحفظ للجزائريين باختلاف أنسابهم وأعراقهم كرامتهم ويحقق لهم العدالة إن هم انضووا تحت تعاليم الإسلام التي تتكفّل بتوفير الراحة والطمأنينة النفسية للأفراد وتضمن الاستقرار والعزّة لمجتمعهم ، وقد استثمر الشيخ ابن باديس الطاقات والعناصر البشريّة النشطة والمتمّسة في العمل الإصلاحي التي اعتمد عليها في مشروعه الكبير اعتمادا كليّا ، مراعِيًا قدرات هذه المجموعات وكفاءاتها المتنّوعة 3. و من باب الأمانة والموضوعيّة الاعتراف بأن هذا التيار كان الدرع الواقي للأّمة الجزائريّة من الوقوع في المخطط الفرنسي الخطير الذي أعدته السلطات لهذا الشعب المغلوب على أمره ، والجدار الصّلب الذي تتهاوى أمامه كل الأطراف المشبوهة التي كانت تشكّك في كّل ما له قيمة عند الجزائريين ،وهناك شخصيات كانت تنكر وجود الأّمة الجزائرية في لحظات يائسة عاشتها هي وفريق من المستلبين

3 تزامن ظهور الشيخ ابن باديس مع ظهور طلائع الهيئات، والحركات السياسية الوطنية الجزائرية، بدء بجماعة النخبة(1912م)، ودعاة التخميس (1919م)، ونجم شمال إفريقيا (1926م) وكتلة النواب الماليين المنتخبين (1931م)، وهيئة المؤتمر الإسلامي (1936م)، إلى حزب الشعب الجزائري (1937م).

ثقافيا ، تأثًرا وتصديقا لمقولات الكاتب العام للحزب الشيوعي الفرنسي" موريس توريز" الذي قال يوم:1939/02/11 عن الأّمة الجزائرية بأنها" أّمة في طور التكوين ، وأنها تتكون من عشرين جنسًا" كما قال عنها "إدغار فور" رئيس الحكومة الفرنسية : [إنها لم تكن أبدا أّمة ولا دولة في التاريخ]4 المستلبون الذين كانوا لا يتورّعون عن مهاجمة ما يربطهم بتاريخهم وجزائريتهم ، وكان ذلك بداية نوبة الاستلاب الفكري واللغوي والعقدي الذي اعتمد عليه الاحتلال .


موريس طوريز: إنكار وجود الأمة الجزائرية


إدغـــار فـــور
رئيس الحكومة الفرنسية

وكان ابن باديس الواعي بخطورة فكر هؤلاء يخيب آمالهم غالبا حين يثبت لهم بأن التاريخ لا يتنكّر لهذه الأمة و يعترف بعراقتها وتجذّرها في سابق

4 جريدة (لو موند) عدد:15 أكتوبر 1955.

الأزمان، وهي الحقيقة التي لا ينبغي تجاهلها؛ وإن سعت فرنسا إلى إنكارها ؛ بل إننا لا نبالغ حين نقول إن الجزائر أكثر رسوخا في التاريخ من فرنسا ، وهذا الأمر يعرفه المتبصّرون بدراسة التاريخ ، والحقيقة أن التاريخ لم يُخف عنّا أن اسم " فرنسا" المجاهرة بعراقتها لم يكن اسمًا فرنسيًّا وإنّما هو اسمٌ أجنبيٌّ وبالتدقيق هو اسم ألماني أطلقه الألمان على هذه البقعة من الأرض التي كان يسكنها "الغاليون" ، في حين أن اسم الجزائر هو الاسم المحلّي العربي الذي اختاره أهل الأرض لوطنهم فقد أطلقه عليها " بلكين بن زيري ".5

كان ابن باديس الجبهة العروبيّة القويّة التي وقفت في وجه هؤلاء العابثين الذين استطاعت فرنسا أن تهزّ أفكارهم ، وأن توجّه تفكيرهم إلى العبث مع

5 رحم الله الفيلسوف الجزائري المفكر مولود قاسم الذي ظلّ طوال حياته العلمية مجاهدا من أجل التاريخ الجزائري ، والدفاع عن هويّة إنيّة) الجزائر العربية الإسلامية. يمكن العودة5 (****)

5 صفحات من عبقرية الجزائر /المؤلف/ مخطوط.

5 تزامن ظهور الشيخ ابن باديس مع ظهور طلائع الهيئات، والحركات السياسية الوطنية الجزائرية، بدء بجماعة النخبة(1912م)، ودعاة التخميس (1919م)، ونجم شمال إفريقيا (1926م) وكتلة النواب الماليين المنتخبين (1931م)، وهيئة المؤتمر الإسلامي (1936م)، إلى حزب الشعب الجزائري (1937م).

5 جريدة (لوموند) عدد:15 أكتوبر 1955.

ة إلى : شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية/ الجزء الأول / الصفحة:37.

أهـم مقّومات هذه الأمّة وهو وجودها وتاريخها ، وكان ردّه الحاسم والعظيم :

[فتشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمةَ الجزائرية المسلمةَ متكونةً موجودةً كما تكّونَت وُجِدت كلُّ أَمم الدنيا،فهذه الأمة تاريخُها الحافل بجلائل الأعَمال، ولها وَحْدَتُها الدينيّةُ، واللُّغويّةُ، ولها ثقافتُها الخاصّةُ، وعوائدُها، وأخلاقُها، بما فيها من حسنٍ وقبيحٍ، شأن كلِّ أممِ الدنيا، ثم إن هذه الأّمةَ لجزائريةَ الإسلاميّةَ ليست هي فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا، ولو أرادت، بل هي بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها وفي أخلاقها، و في عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج، و لها وطن محدود معيَّن هو الوطنُ الجزائريُّ محدودة الحالية المعروفة والذي يشرف على إدارة العليا السيد المُعيَّن من طرف الدولة الفرنسية]6

ولولا نشاط هذا التيار الإصلاحي بما في ذلك جمعية العلماء ذات المسعى التنويري الجهادي في ما بعد، لكانت الجزائر كلّها بعربها وأما زيغها وإسلامها في خبر كان!!

وهذا ما يثبته الباحثون والمختّصون في رصد إنجازات جمعيّة العلماء، والتي كان أهمّها حفظ الشخصية الوطنية وصونها من الذوبان والمسخ

6 (الشهاب ج1 م12 ص45-50، محرم 1355هـ-أفريل1936م).

والضياع. وينبغي أن يكون لباحثينا الشجاعة في الاعتراف بهذا الفضل الذي لا يمكن بأي حال إنكاره.

وإن كانت هناك اليوم دعوات تتعالى بإنكار فضل هذا التيار على الثورة الجزائريّة، وتهاجم أطرافا وتتّهمها بالانحياز له و التعاطف معه ، فالدكتور "رابح لونيسي" يرى أن أبا القاسم سعد الله7 يتعاطف مع جمعية العلماء وينسب لها ما لغيرها من المجد حيث يقول في معرض حديثه عن الخطاب التاريخي للدكتور أبي القاسم سعد الله 8 : " يلاحظ أي قارئ للخطاب التاريخي لأبي القاسم سعد الله مدى تعاطفه مع جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين إلى درجة القول أن الثورة والجزائر بدون جمعيّة العلماء كريشة في مهبّ الريح سنة1954) كما يريد الإيحاء للقارئ الغير العارف بالحقائق أنّ عناصر من الجمعيّة كانوا من مفجّري الثورة الجزائريّة وذلك عندما يقول:(وينبغي أن نعرف مستقبلا كم من الذين فجّروا ثورة(1954) كانوا من خريجي خلايا حزب الشعب وكم منهم كان من خريجي جمعيّة العلماء) ونعتقد أن سعد الله مؤمنا بما يقوله رغم أن الواقع والحقيقة التاريخيّة تفنّد ذلك لأنّ الجميع يعلم أن الذين فجّروا الثورة هم مجموعة صغيرة من مناضلي الحركة من أجل الانتصار للحريات الديمقراطيّة، إلاّ أن في بعض الأحيان تعاطفنا المبلغ فيه يجعلنا نتوّهم أشياء وأمور ونصدّقها، بل يمكن لنا أن نذهب أبعد من ذلك فنقول إنها أمانيّ لفرد فيتصوّرها حقيقة، وهذا الأمر يتعرّض لها الجميع ونحتاج إلى علم نفس لتفسيرها.]9وهذا الموقف ليس الوحيد ،والحقائق التاريخيّة تثبت صحّة ما ذهب إليه سعد اللّه الذي لم ينكر أن الثورة لم يصنعها الاستقلاليون المصاليون فحسب ،وإنّما أسهم فيها كثير من إخوانهم الجزائريين من مختلف التيارات الأخرى ، وتلّمس الحقيقة يكون بالإجابة عن السؤال ألم تكن الثورة بحاجة إلى إقناع الجماهير العريضة بجدواها وضرورتها وهذه رسالة شيوخ جمعيّة العلماء؟ - وهل هناك من ينكر بأن طائفة كبيرة من أبناء الجمعيّة استشهدوا في الجبال مجاهدين واغتيل بعضهم لمناصرة الثورة؟ وهل يمكننا أن ننكر بأن الجمعيّة كانت السبّاقة إلى مباركة الثورة، وكان أدباؤها أوائل المشيدين بها؟ - وهل يمكن إنكار أن طلائع المجاهدين الشباب التي تركت مقاعد الدراسة وصعدت إلى الجبال كانت

7 رحمه الله تعالى ....الموضوع كتب قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى..

8 النص كما ورد بأخطائه في الكتاب، ولا ندري أهي أخطاء المؤلّف أم هي أوهام الناشر ؟!

9 دراسات حول إيديولوجية وتاريخ الثورة الجزائريّة/د: رابح لونيسي. كوكب العلوم /2012/ص:210/209

خرّيجة الجمعيّة التي رغمت فيهم مبادئ الوطنيّة الحقّة وجدوى الجهاد؟والحقيقة أنّني لست باحثا في التاريخ ولكنني، ولكنّني قارئ لفصوله قراءة المتعطّش لمعرفة الحقيقة المنصفة لمن ظلمهم من كتبوا هذا التاريخ باحث في خباياه ،وألاحظ أن هذا الاتّهام لسعد الله بأنه يجري خلف وهم اصطنعه وصدّقه وراح يدافع عنه، يبدو غيّر مبّرر، وينطلق من نوازع نفسيّة لا يعلمها غير ربّي!! وإذا كان شيخ المؤرخين وأستاذهم ممّن يعبد ون وهمه ويهيم وراءه فماذا نقول عن الفيلسوف مولود قاسم نايت بلقاسم الذي اعتبر ابن باديس وهو (جمعية العلماء المسلمين) بالأب الّروحي للثورة التحريريّة ، ويمكن العودة إلى الصفحة (شهادة الشيخ أحمد حمّاني . رحمه الله .) الذي قدّم تدخلا مهّما في الحديث عن ابن باديس والثورة ، ومما أقتبسه منه هذين الشاهد ين المهّم: أكد الشيخ محمد "الحاج بجة "أحد تلامذة الشيخ الأوائل في ثلاثينات القرن العشرين ، وأن الشيخ ابن باديس . رحمه الله . كان يسأل تلاميذه الكبار عن تأّدية الخدمة العسكرية ؟ والذين يجيبونه بالإيجاب يميّزهم عن الآخرين ويخبرهم " سنحتاجكم يومًا ما" ، وحثّهم على عدم نسيان ما دربوا عليه من أعمال الحرب، ولعل هذه الشهادة تفسر شدة اتصاله رحمه الله بتلميذه الشيخ الفضيل الورتلاني ـ رحمه

الله ـ ، فقد كان من الذين أدوا الخدمة العسكرية قبل أن يتصل به فكان يقّربه جدا، ويستصحبه معه في بعض رحلاته ويركن إليه في تربية صغار تلاميذه فقد حلّث الأستاذ حمزة بوكوشة — وهو من أقرب المقربين إلى الشيخ عبد الحميد والعاملين معه في ميادين العلم والإصلاح والسياسة — إنه دعاه ذات يوم للمبايعة على إعلان الثورة المسلحة، وحدد له تاريخ إعلانه بدخول إيطاليا الحرب بجانب ألمانيا ضد فرنسا، مما يحقق هزيمتها السريعة، فبايعتُه على ذلك، وكان بالمجلس غير الأستاذ حمزة منهم من تردد ومنهم من أقدم على المبايعة. وقد أكد الشيخ محمد بن الصادق جلولي هذه الرواية ودعمها. ولكن المنية أدركت ابن باديس قبل موعد إعلان الثورة ببضعة وخمسين يوما، فقد مات في 16 أفريل 1940 م، ودخلت إيطاليا الحرب في 10 يونيو 1940م. ولعلّ الحكمةَ قي تحديد هذا التاريخ لابتداء الثورة ولعلها تمددها إلى الجزائر، فإذا دخلت بجانب ألمانيا وانتصرتا صرنا (ميراثًا) من تركة الهالك! فأراد الشيخ أن نكون في الوجود وأن نطرد فرنسا بأنفسنا، ودخول إيطاليا في الحرب يسهل مهمتنا، وأتذكر جيدا أنني صارحته ذات يوم بالخوف — إن انتصَر المحور — من استيلاء إيطاليا على بلادنا باعتبار أننا تراث من فرنسا، فأجابني فورًا رافعًا

رأَسهُ :(ليست إيطاليا التي تستطيع استعمارنا يا بنَّي) قالها في اعتزازٍ وثقةٍ وقّوةِ نبرةٍ توحي بالتحدي.

أّما التيار الثاني فهو التيار الذي يصطلح البعض على تسميته بالتيار "الحضاري"10 الذي يمثّله الكتاب والمثّقفون والسياسيّون الذين تلّقوا ثقافة فرنسيّة في الداخل الجزائري أو في فرنسا ويمثل هؤلاء جزءا لا يُستهان به من نسيج المجتمع ، وهذا التيار تمثله الفئات المعجبة بفرنسا والّراغبة في أن تكون الجزائر جزءً ا من فرنسا أو دولةً حرَّة على النمط الغربي الفرنسي في طرق المعاش والتفكير والعقيدة، وكان هؤلاء المثقفون قد استمدّوا فكرهم وكّونوا هذه القناعات من التعليم الفرنسي الذي كان حريصا على نشر ثقافة وفكر وعقيدة الفرنسيين وقد ركّز هذا التعليم في بدايته على منطقة القبائل التي كان يراهن على جعلها تخرج عن انتمائها ووطنيّتها في حين حدث العكس!!

هذا الاتجاه الذي كان يكتب بالفرنسية ويعيش الحياة الأوربيّة ، لم يكن ينظر إلى الماضي والجذور للتريخية للشخصية الجزائريّة، ولا يأخذ في حسبان نضاله هذه القيم التي يحرص عليه الإصلاحيون ويجعلونها أولويّة الأولويّات، بل إن كثيرا من قياداته كانت تدين بالمسيحيّة وتزوج بعض وجوهه من مسيحيات فرنسيات، وكان في مظاهر النضال والحياة يمثل التعلّق بالنمط الفرنسي الغربي، وحينما نشير إلى وجود هذين التيارين (الإصلاحيين ذوي المنابع الثقافية الفرنسيّة)(الحضاريين ذوي المنابع الثقافية الفرنسيّة) ينبغي ألاّ نهمل بأنه ضمن التيار الأول نجد وطنيين يحملون نفس القيم التي سعى إليها الإصلاحيون ويقاومون الاحتلال بكل الأساليب غير أنهم ليسوا مهيكلين في هذه الجمعيّة . بالإضافة إلى أن في التيار الثقافي من كان يحمل ثقافة فرنسيّة عالية ومن كان ذا مستوى رفيع ومع ذلك لم يكن من دعاة الفرنسة أودعاة وعّرابي الانسلاخ من الهويّة العربيّة الإسلاميّة والمطبّلين لفرنسا. ومن هؤلاء يمكن أن نذكر أحمد توفيق المدني الذي كان مثّقفًا ثقافةً فرنسيّةً مميّزة ، وقد ساعد هذا النوع من المثّقفين التيار الإصلاحي الجمعوي في التواصل مع فئات لم تكن تتقن العربية أو مع السلطات والمستوطنين، ولا ننسى مالكًا بن نبي الذي لم يكن راضيا عن الجمعيّة ولا مباركًا لها ولتصرفات شيوخها مطلقا11، وكان ينتقدها ومع ذلك يلتقي

10إذا سلّمنا بصحّة هذا الاسم فبماذا عسانا نصف تيار الإصلاح الذي أنشأه ابن باديس وقاده،هل معنى ذلك أنه تيارٌ رجعيٌّ يتنافى مع الحضارة ويدعو إلى مخالفتها والرجوع إلى الماضي!؟؟

11 تميّزت مواقف مالك بن نبي بالتذبذب حيال جمعية العلماء التي عاب عليها أوّل مرة الاشتغال بالسياسة و التحالف مع الشيوعيين

معها في كثير من النقاط التي يقوم عليها الفعل الإصلاحي لبعث النهضة وبناء الحضارة، وقد كان رحمه الله ذا ثقافة فرنسيّة متميّزة ،ورغم ذلك لم يقده إعجابه بهذه الحضارة إلى إنكار هويّته والتملّص من وطنيّته وإسلامه كما فعل فرحات عباسه وبعض من الذين انجذبوا إلى فرنسا طواعية في مرحلة من مراحل حياتهم.

إذا ما أردنا أن ندرس حياة الشيخ ابن باديس السياسية فلا أعتقد أن فصلا في كتاب أو صفحات في مجلّة أو محاضرة يمكنها أن تفي بالمطلوب لأن حياة الشيخ السياسية كانت حياة الأمّة الجزائرية في وجه محاولات فرنسة هذا الشعب ومحو هويّته وفصله عم امتداده العقدي والقومي ، في وجه حملات شرسة أرادت من ورائها السلطات الفرنسية أن تمحو من فكر وحياة أبناء هذه الأمة شيئا اسمه الإسلام وآخر اسمه العربيّة ووطنا اسمه الجزائر العربيّة المسلمة، وكانت حياته تجسيدا لهذه المقاومة السياسية التي لم يتسرب إليها الوهن أو الضعف وإنما كانت تزداد قوّة وثباتا ومنعة وتحدّيا كلّما أمعن الاستعمار في أساليبه القمعية الجائرة.

ومع ثراء الموضوع واتساعه ، سنجتهد في أن نقدم إجمالا وإيجازا لأهم المحطات في حياة هذا الّرجل الذي فرض على فرنسا المتبجّحة المدّعية بالحرية والمؤاخاة والإنسانية أن تقف عاجزة عن النيل منه ومن حركته التي سرت في البلاد سريان النّار في الهشيم.

بدأ ابن باديس العمل السياسي رسميًّا حينما أنشأ مع نخبة من علماء بلاده المخلصين الشباب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، هذه الجمعية التي كانت في نظر الكثير من الدارسين حزبا سياسيا متخفّيا وراء هالة الإصلاح والدين والتهذيب والتربية ، فقد عمل على إفشال مساعي السلطات الفرنسية في ما يخص العقيدة واللغة والتجنّس12،وعمل جاهدا كما يعمل الأنبياء

والبورجوازيين أرباب المال باعتبارهم ساعون إلى ترسيخ ما يضمن مصالحهم ويحميها ، ولعل إهمال الجمعية وتجاهلها له كمثقّف كان السبب الكامن وراء كثير من هذه المواقف التي كانت تصل حدّ السخريّة من ابن باديس حينا والإعجاب به حينا آخر باعتباره يمثل الإسلام المتمدّن المخالف لما كان يراه مالك في غيره الذين يمثلون الإسلام البدوي ، ويختلف هذا الموقف بعد عقود من الزمن ، حين يرى مالك مقدار التحوّل الذي أحدثه الإمام ابن باديس في حياة الأمّة الجزائريّة ، فيتغيّر الخطاب ويتحوّل إلى مدح وتقدير ، والخلاصة في هذه المواقف أنها تغيّرت نتيجة النضج الفكري لمالك بن نبي ونتيجة للوقائع والتاريخ الذي غيّره ابن باديس بمعيّة جمعيّته.

12 أصدر ابن باديس فتواه ونشرها في العدد95 من البصائر الصادر في1938/01/14م ومما جاء في هذه الفتوى: " ومن تزوّج بامرأة من جنسية غير إسلامية فقد ورّط نسله أي (أولاده) في الخروج من حظيرة الشريعة الإسلامية ، فإن كان راضيا لهم ذلك ومختارا لهم على بقائهم في حظيرة الشريعة الإسلامية ، فهو مرتدٌّ عن الإسلام ، جان عليهم ، ظالم لهم ، وإن كان غير راض لهم بذلك ومختار لهم ذلك على شريعة الإسلام ، وإنما غلبته شهوته على

في تفان وتضحية جلّ أن نلقى نظيرا لهما على فضح الاستعمار وإثارة المشاعر ضدّ الفرنسيين ، عندما تبيّن له أنهم ما جاءوا إلى هذه الأرض إلا مفسدين ، وإن كانوا يدّعون غير ذلك.وكان عمله يرمي إلى إبطال محاولات الاستعمار إذابة العنصر الجزائري العربي المسلم في فرنسا ، وكان ينكر ذلك وينفي إمكانية تحقيقه حتى وإن أراد الجزائريون أنفسهم أن يكونوا فرنسيين، وكان شعاره في ممارسة السياسة ودستوره ورايته المعلنة هي أنّ:[هذه

الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ، ولو أرادت، بل هي أمّة بعيدة عن فرنسا كلّ البعد لغتها وفي أخلاقها، وفي عنصرها وفي دينها لا تريد أن تندمج ولها وطن محدود معيّن هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة و الذي يشرف على إدارته العليا السيد الوالي العام المعيّن من قبل الدولة الفرنسيّة.]13

يمكننا تقسيم حياة ابن باديس السياسية بالنظر إلى نشاطاته ومواقفه وتحرّكاته إلى مراحل ثلاث ، ت

ذلك الزواج فهو آثمٌ بجناياته عليهم و ظلمه لهم، لا يخلّصه من اثمه العظيم إلاّ إنقاذهم مما أوقعهم فيه بهجرته بهم"

13 من مقال: دعوة صريحة /الشهاب/الجزء:01/ المجلد:12/ أفريل1936م.

تميزت كلّ منها عن غيرها بأسلوب مختلف في كيفية التعاطي مع المستجدات والاستعمار.

والمرحلة الأولى تبدأ من سنة1931م وهي السنة التي رأت فيها جمعية العلماء النور ، وتمتّد إلى غاية سنة1933م، وتميزت هذه الفترة بتحاشي المواجهة مع الاستعمار وانتهاج سياسة التخفّي وراء ستار العمل التربوي والإصلاحي ، وكان فيها ابن باديس العالم والمصلح الحريص على أن يكسب من الوقت ما يمكّن مشروعه من النجاح ، فالعيون ترصد حركاته وتتجسّس على امتداد فكره التنويري، وآثار هذا الفكر بدأت تتجلّى للعيان في إقبال الناس على العلم والتديّن الصحيح ، وبداية الجفاء مع الاستعمار، وهذه الإنجازات التي كان يراها الرجل قيمة من الجدير به أن يحافظ على استمراريتها و ديمومتها ليتحقّق مشروعه الأكبر وهو التحرير.

هذا المشروع الذي حمله ابن باديس وحمّل الجمعيّة مسؤوليته ، وهذا ما كشف عنها الّرجل الثاني فيها ، ورئيسها بعد ابن باديس حين قال: [مبدأ الجمعيّة يرمي إلى غاية جليلة ، فالمبدأ هو العلم، ،والغاية هي تحرير الشعب الجزائري، والتحرير في نظرنا قسمان: تحرير العقول والأرواح وتحرير الأبدان والأوطان ، والأّول أصل الثاني ، فإذا لم تتحرّر العقول والأرواح من الأوهام في الدين

والدّيا ، كان تحرير الأبدان من العبودية والأوطان من الاحتلال متعذّرا أو متعسًّرا]14

وإذا كان البعض يذهب إلى أن ابن باديس لم يكن يفكر في هذه المرحلة في ممارسة السياسة على الإطلاق ،ولم تبدأ ميوله إلى العمل السياسي تتشكّل، فإن هذا يعني بالمطلق بأن الّرجل كان مدركا لأن أي نشاط سياسي معلن وأي معاداة وتصادم مع السلطة سيكون السبب في نهاية مشروعه الّرائد وتبّخر حلمه الكبير؛ لذا فإنه عمد إلى تبني إستراتيجية التخفّي والنأي عن السياسة وأهلها ومحاولة التذكير كّل حين بأنه رجل إصلاح وتصحيح ديني ، وليس سياسيا.

ولعلمه بأن فرنسا كانت تتحسس من السياسيين والمشتغلين بها فإنه حرص على أن يبد دوما إماما وعالما لا غير، ولم يكن لهذه السلطات أن تدرك مهارة وذكاء الشيخ الذي كان يقوّي الأرضية التي سيقيم عليها دعوته إلى تحرير الأمة الجزائرية من الاستعمار ، وهذا التأنّي والتخفّي كان ضرورة اقتضتها الظروف ومعطيات التاريخ والواقع ، فقد مضى على وجود الاستعمار الفرنسي في الجزائر ما يزيد عن المائة عام ، وهي فترة أتاحت لهذا الأخير أن يقوّي وجوده وحضوره في حياة هذا الشعب وعاداته ، وليس من السهل الخروج عليه فجأة دون سابق تحضير أو إعداد، كما أن واقع الأّمة الجزائرية كان واقعا متر ديا بائسا منحطّا على جميع المستويات ،فالجهل والأميّة وانتشار الأمراض والأوبئة والفقر والمجاعة وانتشار البدع والضلالات كانت كلّها أعراض مرض عضال يقود الأمم والشعوب إلى الدرك الأسفل في سلم الحضارة والوجود ، وهذا المرض هو الاستعمار الذي فتك بالأمة الجزائرية ، وأّمة على هذه الحال لا يمكنها أن تقف في وجه الاستعمار أو أن تنكر عليه ما يريده بها من مخططات التغريب والفرنسة.

إن ابن باديس لم يكن مغامرا ولا مستعجلا في القيام بأي مبادرة أو فعل من شأنه أن يأتي بنتائج عكسية تزيد واقع الجزائريين بأسا على بأسهم ، وكان وهو المعروف والمشهور بين الناس وخصوصا بين إخوانه من شيوخ الجمعية بالحذر الشديد والحيطة لا يقبل على عمل دون أن يقتله تمحيصا وتدقيقا ، وهذه سمات السياسي الناجح الذي يعرف قيمة المغامرة بالشعوب وإلقائها في الهاوية ، وأنتم تعلمون كم عانت الشعوب العربيّة ولا تزال تعاني من هذه المغامرات التي جنت عليها وقادتها إلى الاستعمار بعد أن كانت تتمتع بالحرية والسيادة ، ولا أصدق للتمثيل على ذلك من

14آثار الشيخ البشير الإبراهيمي / الجزء:04/ الصفحة:344/343.

العراق الشقيق الذي دفعت به مغامرة رعناء . قد تكون مبرّرة . إلى أن يصير كما هو اليوم.

إن ابن باديس قارئٌ جيّدٌ للتاريخ وسياسيٌّ محترفٌ ،ولا يمكنه أن يغامر أو يدخل رهاناً وهو يعلم أن حصانه ذو حظّ عاثر في سباق لا مكان فيه للمغامرين وأصحاب الحظوظ العاثرة!!

ومع ذلك كان لا يفتأ يذكّر الاحتلال وأعوانه ويذّكر العالم أجمع بما في ذلك الأمّة الجزائريّة بأن الاحتلال يجب أن تكون له نهاية ، فهو كأيّ يوم ، ينبغي أن ينتهي حين تغيب شمسه ، وكان تأكيده على أن مصير الأمّة الجزائرية هو الاستقلال ، وهو النتيجة الحتمية التي ستكلّل نهاية المقاومة التي يخوضها ، فالجزائريون لا يعوزهم إلاّ الإيمان بضرورة الاستقلال واستعادة السيادة التي سلبها الغزاة الآثمون ، ثم إنّ÷م يملكون مؤهلات هذه النهاية السعيدة التي تنتظرهم . و يسعى جاهدا إلى ترسيخ هذه الفكرة في نفوس أفراد هذه الأمّة ، واستبعاد فكرة الهزيمة المسبقة ونظرية حتمية وقدرية الاستعمار، وهي الفكرة التي كانت أطراف جزائرية تسعى إلى ترويجها : [إن الاستقلال حقّ طبيعيٌّ لكلّ أمّة من أمم الدنيا ، وقد استقلّت أمم كانت دوننا في القوّة والعلم والمنفعة والحضارة ، ولسنا من الذين يدّعون علم الغيب مع الله ويقولون أن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد]15

وفي هذه المرحلة كان ابن باديس الإمام المعلّم والصحفي والمفسّر والداعية المناهض لأولئك الذين باعوا ضمائرهم وذممهم للاستعمار، ولم يكن يبدو عليه انه ممّن يتعاطون السياسة أو يريدون الانغماس في أنشطتها.بل كان يعمل على توعية الشعب وإعداده فكريا وعقديا ليتحّمل تبعات المرحلة القادمة ، واكتفى في هذه المرحلة بتعريف الجزائريين بواقعهم وبفداحة وبؤس هذا الواقع ، وبؤر الفساد فيه ، كما كتنح ريعا على كشف وتحديد المتسبّبين فيه ، وأمدهم بوصفات التحّرر من هذا الواقع ، وأخذ بأيديهم للخروج منه.

أمّا المرحلة الثانية وتبدأ سنة1934م وتتجلّى في أن نشاط ابن باديس التعليمي والتنويري بدأت ثماره تظهر في حياة الجزائريين ، وهذا في مجال الممارسة الدينية والإقبال على المساجد لفهم الدين الصحيح وممارسته ، والإقبال على التعليم العربي، وظهور طبقة من المتعلّمين الذين كانوا باكورة الجمعية ، والذين استثمرتهم نشر التعليم وتعميم المعرفة في كل نواحي الجزائر لمواجهة سياسات وإجراءات الاستعمار التجهيلية، كما أن الجمعية

15 الشهاب/ الجزء:03/ المجلّد:12/ جوان 1936.

صارت هيأة معروفة لدى أغلب الجزائريين تحظى بالتقدير والإجلال والاحترام، وصار شيوخها رمزا لحقيقة الشعب الجزائري ، فقد كان الجزائريون ينظرون إلى ابن باديس كرمز للشخصية العربية الإسلامية الجزائرية ، وصار ابن باديس رمزا لا يقلّ قيمة عن شخصية الأمير عبد القادر التي لا تزال تحتفظ بنوع من الإجلال والتقدير أحاطت به هالة الجهاد في سبيل الله ، وقد حدّثني أحد الشيوخ الذين تعلّموا في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنّ الناس في تلك الفترة كانوا يجلّون الأمير عبد القادر المجاهد محارب الكفار، وعبد الحميد ابن باديس المجاهد كذلك الذي كان يحارب المبشّرين، وهذا التقدير والاعتراف على بساطته يحمل أكثر من دلالة على المكانة التي تبّوأها الشيخ ابن باديس في المجتمع الجزائري، بفضل ما قدّمه لهذا المجتمع.

وكأن الجزائر المسلمة التي استباحها الغزاة الفرنسيون سنة1830م كُتب لها أن تعيش الجهاد بالسيف والكلمة بين مرحلتين أو عبدين أولهما عبد القادر الذي كان مثالا في الإيمان والجسارة والتصّوف ، وثانيهما عبد الحميد الذي كان رمز الإقدام في الذبّ والدفاع عن عروبة وإسلام هذه الأّمة ، التي يحقّ لها أن تباهي متفاخر بالّرجلين.

وفي هذه المرحلة كان الاستعمار وسلطاته قد بدآ يمارسان نوعا من الضغوط والمضايقات على الشيخ ونشاط الجمعية ، فأمست حركاته وتنقلاته مرصودة من قبل العيون التي تلاحقه في كل مكان، وذلك لأنّها استشعرت تأثير ه وتأثير حركته على الروح الجزائرية التي كانت قد أُحبِطت أو كادت ؛ وها هي الآن تنهض من كبوتها وتثور تدريجيا طالبة الخلاص من قيود الاستعمار المؤلمة التي تحدّ من حركتها ، وتذلّ إنسانيتها ، وتسخر من كرامتها

تنتهي هذه المرحلة سنة1937م ، ويمكن اعتبار أن ابن باديس قد استجمع سياسته وحدّد الخطوط التي سيسر عليها في هذه الفترة من تاريخ الجزائر الذي كان حافلا بالأحداث ، وقد بدأت تتضح معالم موقفه السياسي ممّا يدور، وصار يكشف عنها في مقالاته وخطبه وزياراته إلى المدن والنواحي الجزائرية .

وفي تلك الأيام كشف الشيخ عن موقفه من التجنيس والفرنسة ، واعتبرهما محاولة يائسة من الاستعمار لتغيير هذا الشعب وتحويله عن أصالته وتحريفه عن قبلته، ،وكان ذلك متماشيا مع مواقفه ودعواته الإصلاحية ، وكانت المقالات السياسية التي عمد إلى نشرها تصبّ في مجموعها في تحميل السلطات الاستعمارية مسؤولية ما تقدم على فعله. وقد رأينا فيما سبق كيف وقف في وجه

سياسات التجنيس ، وحاربها باسم السياسة والوطنية كما حاربها باسم الدين والعقيدة. وكانت مواقفه الملتهبة الحاسمة من بعض الطرقيين والموالين لسياسات العدّو سمة بارزة من سمات عمله السياسي في هذه المرحلة حيث توجّه إلى حشد المواقف وتأليب الشعب وجمع الحركات السياسية المختلفة والمتباينة في توجهاتها العقدية من أجل تشكيل جبهة جزائرية موحّدة لمواجهة مشروع بلوم فيوليت ، هذا المشروع الذي أرادت منه فرنسا أن تنفّذ مشروع فرنسة الجزائر بطريقة فيها نوع من التحايل وتنم عن كثير من الخبث السياسي، ولا بأس أن أذكّر بحيثيات هذا المشروع ، وإن كنا قد لمّحنا إليه سابقا ، فهذا المشروع الذي قام بإعداده الفرنسي (موريس فيوليت)16 يعتبر لدى أغلب الجزائريين من باحثين وكتاب ووطنيين البرنامج الأخطر في تاريخ الاحتلال الفرنسي على الهويّة الوطنية الجزائرية ، ويتضمن مجموعة من الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تركت آثارا في الناحيتين الفرنسية والجزائرية ، ، ولم يكن من السهل أن يُقدّم مشروع كهذا على الجزائريين من جهة أو على المستوطنين من جهة أخرى لأنّ كل طائفة لها أسبابها الخاصّة التي ستدعوها إلى إشهار البطاقة الحمراء في وجه من سيعرضه ،لذا فإن صاحبه كان يتهيّب كثيرا من طرحه، وقد تضمن فكرة تجنيس حوالي 25000 جزائري كمرحلة أولى ، رغم أن هذه الفكرة وغيرها من الأفكار و الطروحات كانت موضع رفض المستوطنين الذين لم يهضموا أن يتساوى معهم الجزائريون في الحقوق المدنية ويصبح لهم الحق في أن يكون لهم ممثلون في البرلمان،وقد قوبل هذا المشروع برفض حادّ وكبير من قبل هؤلاء المستوطنين ولا أدلّ على أسباب هذا الرفض ممّا قاله "غابريا آبو" رئيس إحدى البلديات الاستيطانية ، وأحد النواب السابقين في المجلس الجزائري ، يثير مشاعر المستوطنين في منتهى الحماقة الممزوجة بالحقد فيقول: [لقد سئمنا من حكايات انتخاب الأهالي السخيفة هذه ، فإننا نستطيع دائما أن نعيد الكرة ، لابدّ لنا أن ننهي هذه المسألة ، إننا لم نعد نريد حكومات تتسم بطابع عاطفي ولّى زمانه ، ولكننا نريد رجالا أشدّاء يعرفون كيف يجعلون الآخرين يحترمون حقوقنا17 ، وذلك باستعراض القوّة ، وباستعمالها

16 (MAURICE VIOLETTE).

17 في حديث غابريا آبو تتجلّى الحماقة والعنجهية الفرنسيتان ، ف(الآخرون) الذين يتحدّث عنهم هم الجزائريون أهل الأرض ، بينما (الحقوق) ـ حسب ادّعائه ـ هي حقوق المستوطنين في النّهب والسيطرة والنفوذ وإذلال أهل الأرض ،وهو يريد من السلطات أن تدوس على رقاب الجزائريين ليرضى هو وغيره من قطعان

عند اللزوم] ولتمرير مشروعه وإقناع المستوطنين بعدم تأثير موضوع التجنيس على مصالح هؤلاء المستوطنين ، حاول أن يبعث في نفوس هؤلاء أن هذا الإجراء لا يمكنه أن يشكل خطرا على هذه المصالح التي تحرص عليها الحكومة الفرنسية ، وكان الّرجل يبذل جهدا مضاعفا في سبيل إقناع الجماهير الرافضة للمشروع بأنه لا يشكل أي خطر على النظام السياسي والديمقراطي في فرنسا ، واكتسب الرجل نوعا من الثقة في أن المشروع سيحظى بنوع من الموافقة في المجلسين (الأعلى و الأدنى) لكن فيوليت نسي أن المهم هو مدى القابلية التي سيحظى بها المشروع في الجزائر باعتبار الجزائريين المعني الأول به ، وقد وجد المشروع الّرجل الذي يمكنه أن يكون راعيه وهو فرحات عباس الذي نشر في مجلة الوفاق في 1936/02/27م التي أصدرها مع رفيقه الدكتور ابن جلول مقالته الشهيرة(فرنسا هي أنا) وهي المقالة المشهورة التي أنكر فيها وجود الأّمة الجزائرية ككيان سياسي ومعنوي ، وكان مما قاله فيها:

[إن الجزائر أرض فرنسية ، ونحن فرنسيون لنا قانوننا الشخصي الإسلامي،ونأمل أن تتحول (الجزائر) من مُستعمَرةٍ إلى مقاطعَة]!؟

، وكان ابن باديس أّول من واجه هذا الادعاء والتبّجح اللذين اتصف بهما تيار المنكرين لوجود أّمة جزائرية.

ومما قاله في مقالة نشرها سنة1936 عن الموضوع بأسلوب ساخر متهكّم: [قال البعض من النواب المحليين ومن الأعيان ومن كبار المتوظفين بهذه البلاد إن الأّمة الإسلامية الجزائرية مجمعةٌ على اعتبار نفسها أّمة فرنسيّة بحتَة ؛ لا وطن لها إلاّ الوطُن الفرنسيُّ ولا غاية لها إلاّ الاندماج الفعلي التام في فرنسا ، ولا أمل لها في تحقيق هذه الّرغبة إلاّ بأن تمّد فرنسا يدها بكل سرعة فتلغي جميع ما يحول دون تحقيق هذا الاندماج التام بل لقد قال أحد النواب النابهين أنّه فتش عن القوميّة الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها من أثر]18 وأضاف: إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ، فتشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمةَ الجزائريةالمسلمةَ متكونةً موجودةً كما تكّونَت وُجِدت كلُّ أَمَمِ الدنيا. ولهذه الأمة تاريخُها الحافل بجلائلِ الأعمَالِ، ولها وحدَتُها الدينيّة، واللُّغويةّ، ولها ثقافتُها الخاصّةُ، وعوائدُها، وأخلاقُها، بما فيها من حسنٍ وقبيحٍ، شأن كلِّ أممِ الدنيا.]

المستوطنين الأجلاف.وغالبا ما كانت هذه لهجتهم ودعوتهم لأن يُعامل الجزائريون بقسوة وشدّة .

18 الشهاب/الجزء:01/ المجلد:12/ أفريل1936م.

انبرى ابن باديس كشخصية سياسية مرموقة في هذه الفترة للردّ على هجمة شرسة منسقة يقوم بها الاحتلال الفرنسي بالتوازي مع ثلّة من المثقفين الجزائريين الذين تخرجوا من مدارس فرنسية ، كان يقودهم طموح جارف للحصول على مناصب مرموقة وزعامات سياسية واهمة ، هذه الهجمة كانت تريد تشكيك الأمّة الجزائرية في ماضيها وعراقتها وتاريخها تمهيدا ليسهل وضعها في القالب الفرنسي لإعادة تشكيلها من جديد ، وهذا الحلم الذي جعله ابن باديس يرتدّ خائبا في وجوه الحالمين به .

وحقيقة الأمر أن هذه الفكرة سخّرت لها فرنسا صحافتها ومفكّريها ، ورصدت لها نخبة من الأساتذة الأكاديميين والمؤرّخين ، وأنفقت عليها كما لو كانت تنفق على حرب ، ولكن من أموال هذا الشعب ؛ وأرادت لها أن تتغلغل إلى عقول ونفوس الجزائريين في عناد عجيب ، قال عنه فيلسوف الجزائر ومفكرها مولود قاسم نايت بلقاسم : [تاللّه إنّه لعنادٌ عجيبٌ!!لا يُعادلهم فيه إلاّ حيوانٌ غيرُ نجيب !!] وقد ذهبوا في إنكارهم هذا في الماضي . غير متردّدين أمام تزييف التاريخ! . إلى حدّ الادّعاء أن المغرب (الكبير) ومنه الجزائر وهي القلب ، والمقصودة بالذات ! . لم تستطع تكوين دولة يُضمن لها الدوام]19

ومن أهم ما قام به ابن باديس في هذه الفترة هو الوقوف لصدّ قانون (رينييه)20 ، الذي سبقه موجة من الغضب الشعبي في الأوساط الجزائرية ، هذا الغضب الذي كان تعبيرا شعبيا عن دعم الجزائريين لجمعية العلماء المسلمين التي بدا أنها تتعرض لحملات منظمة من قبل السلطات لثنيها عن مشروعها الإصلاحي ، وتمثلت هذه الحملات في منع الجرائد من الصدور ، ومنع العلماء من إلقاء الدروس في المساجد إلا بعلم وموافقة السلطات الفرنسية21 ، كما أن السلطات منعت الشيخ الطيب العقبي من إلقاء الدروس ، وقد قابل الجزائريون هذا المنع بالرّفض ، فخرج الجزائريون للتظاهر ، وكانت حوادث قسنطينة التي تسبب فيها اليهود ، والتي أبلى فيها الشيخ ابن باديس فيها البلاء الحسن ، واستطاع بحكمته ونفوذه وإجلال الناس وإصغائهم له أن يطفئ نار الفتنة ، وقد نشرت الشهاب عن هذه الأحداث مقالا كتبه الشيخ ابن باديس شخصيا وقدّم فيه تغطية

19 شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة1830م/ مولود قاسم نايت بلقاسم/ الجزء الأوّل/دار الأمّة : الصفحة:13.

20 (Reynier)

21 قرار صدر في18 فيفري1933م

شاملة ووافية لهذه الأحداث التي وقعت في 05 من أوت من عام 1934م ، كما أشرنا إلى ذلك سببا في جعل الأوضاع تتّسم بالفوضى والاحتقان ، وكانت البلاد . بلغة العصر . على صفيح ساخن ، وقد أظهر ابن باديس في هذه الفترة للسلطات قوّة جمعيته وشعبيّتها التي ما كان يتصوّر لها أن تصل إلى هذا الحد ، فقد اجتمع الشباب والرجال والنساء حوله واعتصموا بمشروعه الإصلاحي التحريري، وكان للأطفال دور في هذه الفترة ، فقد عمدوا إلى التعبير عن موقفهم الذي كان متناغما . مع براءة أصحابه . مع الرأي العام الجزائري ، فكانوا يكتبون على الجدران وعلى جوانب القطارات وفي المدارس الشعارات المناهضة لفرنسا ، والمعبّرة عن مناصرة الحراك الباديسي، وأمام هذه الأوضاع وجدت السلطات الفرنسية المركزية في باريس نفسها مجبرة على إيفاد وزير داخليتها "رينييه" إلى الجزائر التي كانت تغلي كالأتون على رأس وفد وزاري ضّم مجموعة من الوزراء ووكلائهم ، لدراسة الأوضاع والبحث في أسباب التوتر العام الذي يعصف بالجزائر ،وكانت الصحافة أيّامئذ وأعني الصحافة الفرنسية تشير بأصابع الاتهام إلى ابن باديس وحركته التي استطاعت أن تهيّج مشاعر الفرنسيين وتحشدهم للفوضى والعصيان والتظاهر.

غير أن المعمّرين والسلطات المحلّية الفرنسية كانت قد أضمرت وأعلّت سّرا مخططا لاستمالة هذا الوفد وإقناعه بوجهة نظرها ، والتي تشمل من بين بنودها اتهام جمعية العلماء المسلمين وعلى رأسها الشيخ ابن باديس . رحمه الله . بأنها تعمل ضد المصالح العليا لفرنسا ، وأنها تؤلّب الجزائريين على فرنسا وعلى مشاريعها الرامية إلى تحسين واقعهم، فاعتُبر ابن باديس مشوّشا ، ووجد الذين كانوا سابقا يحذّرون من أنه يحمل أجندة سياسية مبطنة ومغلّفة بغلاف إصلاحي تربوي الفرصة ، فراحت الصحافة الفرنسيّة تتحدّث عن المصلح الذي خدع فرنسا وجعل ساستها يباركون جمعيته ويوافقون على أن تعمل على ترقية الأمة الجزائرية وتنويرها ، ووجدوا الفرصة لينالوا من الّرجل ، غير أن هذه المقالات كانت ترفع الّرجل درجات في نظر أّمته التي صارت تكّن له التقدير والإعجاب، ووصلت دعاوى المستوطنين والمسؤولين الفرنسيين في الجزائر إلى درجة المطالبة بالضرب على أيادي هؤلاء الفوضويين المهيّجين وعلى رأسهم الشيخ ابن باديس.

وظهرت في الأفق مصطلحات جديدة في حرب هؤلاء وحملتهم ضد ابن باديس كالوهابية، التي صُوِّرت على أنها العدو اللدود لفرنسا ، وأمام هذه الحملات ونتيجة لتهديداتهم لوزير الداخلية

الفرنسية بالأثر الخطير الذي يمكن أن تعود به الإصلاحات التي جاء بها ، لذا فقد وقع في الفخّ وصرّح بأن ما تعيشه الجزائر مجّرد حوادث معزولة سطحيّة وأن الوضع لا يقتضي إصلاحات جديدة ، ونقل إلى حكومته صورة مخالفة لحقيقة ما كان يجري على الأرض. وكان رينييه قد أصدر قرارا وزاريا تضمن : [كلُّ شخص ، سواء كان من المستعمرات الفرنسية أو من المحميات ، أو كان من الأجانب المقيمين في الجزائر، يقوم بإثارة الشعب في أيّ مكان ، وبأيّ وسيلة ، ضد السيادة الفرنسية بإحداث الفوضى أو القيام بمظاهرات ، أو يقوم بمقاومة إيجابية او سلبية ضد تطبيق القوانين والمراسيم والتنظيمات وأوامر السلطة عليه عقوبة ما بين شهر إلى عامين سجنا، وبين خمسمائة إلى خمسة آلاف فرنك فرنسي غرامة]

و لك أن تتصور وقع الزيارة التي كان الجزائريون ينظرون إليها كبارقة امل ترفع عنهم بعضا من أوزار المآسي والمعاناة التي يعيشونها ، فإذا بها تتبخّر فجأة وتتحوّل إلى لاشيء !!

وكان ابن باديس أحد الذين أصابتهم الخيبة ، فقد كان ينتظر أن يقدّم السيد" رينييه" وزير الداخلية الفرنسية مشروعا إصلاحيا تتاح فيه له ولجمعيته ولغيره من الجزائريين أن يستنشقوا نوعا من الحريّة في أن يحيوا حياتهم بالطريقة التي يريدون وفق عاداتهم ودينهم ، وأن يكون لهم الحقّ في استعمال لغتهم وتعلّمها وتعليمها ، وأن يعود لهم قضاؤهم الإسلامي الذي ميّعته السلطات الاستعمارية ، وأفسدته بتدخّلها فيه وباختيارها للفاسدين ليكونوا رجاله، وكانت هذه الخيبة من القوّة وشدّة التأثير بحيث أسهمت في تعزيز الشعور بالغضب والاحتقان في نفوس الجزائريين الذين كان الصراع يحتدم في قلوبهم وعقولهم بين الثقة في فرنسا التي تعد وتخلف والتي أسمى الشيخ ابن باديس وعودها بالوعود العرقوبية 22، وبين ما كانت تطالعه به في خطابات ومنابر ساستها من وعود الإصلاح والالتفات لواقع هذه الأمّة الذي كان يزداد تردّيا يوما بعد يوم.

إنّ زيارة رينييه وما خلّفته من خيبة ممزوجة بالغضب لدى الجزائريين وابن باديس هي ما دفع هذا الأخير إلى فكرة المؤتمر الإسلامي للوقوف في وجه وزير الداخلية الذي أرضى القلّة المتمثلة في المستوطنين والسلطات الفرنسية المحلية في الجزائر على حساب عموم الأمّة الجزائريّة.

---

22 إشارة إلى المثل العربي (أخلف من عرقوب) ،وكان عرقوب هذا وعد رجلا بأن يعطيه من نخله إذا أثمر ، فلما أثمر قال له انتظر حتى يصير بلحا ، ولما أبلح طلب إليه أن ينتظر حتى يصير تمرا، وفي كلّ مرّة كان يماطله ويرجئ الوفاء إلى أن نضج التمر فعمد إليه عرقوب ليلا فجناه ، فلما عاد الرّجل صباحا، لم يجد في نخله شيئا، فصار المثل يُضرب في المماطلة وعدم الوفاء.

لم يكن أمام الشيخ ابن باديس أمام هذه السلطة الصّماء البكماء التي لا تريد أن تسمع أو تستجيب لمطالب هذه الأمّة المشروعة ومع تحالف المعّمرين معها ، وفئات من المثقفين الفرنسيين الموالين للاستعمار ،إلاّ أن يجيّش جماعته من العلماء المسلمين ليقوموا بحملة ضد هذا الوضع وبالخصوص ضد "رينييه" الذي كان قد أعلن بأنه لن يستجيب لأيّ مطلب يقدمه الجزائريون، فمطالبهم باتت تتزايد وتتوالى ، ولا مجال لأن يفتح على نفسه بابا لا يمكن سدّه!؟

وانطلق ابن باديس و العلماء في تعبئة الجماهير في المدن والقرى والأرياف وقام بتنظيم زيارات إلى العمق الجزائري في مختلف المناطق ليشرح ويجمع ويؤلّب.

ولم تطل شكاوى ابن باديس وجمعية العلماء من رينييه واستبداده ، حيث ، أجريت الانتخابات الفرنسية ، وأسفرت عن فوز الجبهة الشعبية التي كانت قد حظيت بدعم الجمعية التي كانت تطمع في أنها قد تعمل على منحهم ولو بعضا من حقوقهم ، وبالفعل فقد استطاعت الجمعية أن تستفيد من هذه الحكومة حيث باشرت نشاطها الصحفي من جديد بإصدارها لجريدة البصائر سنة1935م ،ولم تمض أيّام حتى كشفت هذه الحكومة عن حقيقتها التي لم تكن مختلفة عن سابقتها وكشفت عن أنيابها؛ حين بادرت السلطات بأمر من حكومة الجبهة الشعبية في ممارسة سياسة التضييق ضد ابن باديس



وحركته ، وغيرها من الحركات التي من شأنها استنهاض الجزائريين وإثارة مشاعر الغضب التي تدفعهم إلى الاحتجاج ، ومنها حركة مصالي الحاج الذي طاله القمع الفرنسي فقد حكم عليه بالسجن لمدّة عامين مع رفاقه ، وتم حرمانهم من حقوقهم المدنية، ولم يتم إطلاق سراحه إلاّ في27 أوت 1939م، وهذا طبعا بناء على قرار رينييه القاضي بمعاقبة المشوشين ودعاة الفوضى، ولم يكن مصالي الحاج آنذاك أقّل من ابن باديس في محاولة استقطاب الشارع الجزائري واستمالة الشعب ومحاولة كسبه لتقوية صفّه،وكانت الّروح الوطنيّة في تلك الأيّام قد بلغت درجة من الوعي والرسوخ والقّوة ، بحيث لم يكن ممكنا معها العودة إلى الخلف .

عارض ابن باديس السلطة الفرنسية معارضة شديدة فقد منعته من إصدار الصحف ومنعت

رجاله (شيوخ الجمعية) من الحركة والتنقل وضاعفت وضع العراقيل أمام التعليم العربي، وبذلك كانت تدفعه إلى أن يتموقع في الحركة الوطنية الجزائرية كشخصية مهمّة لها حضورها ووزنها ومواقفها ، وتأثيرها على الشارع، وكانت الصحف الفرنسية تهاجمه دوما وتلصق به تهم العمالة لجهات أجنبية ، ،منها أنّه وهّابي يحمل أهدافا غير معلنة تضر بفرنسا ، وأنه موال لشكيب أرسلان[23] في دعوته القوميّة ، وألصقت به ما شاءت من التهم التي كانت تعظمه في عيون وقلوب أبناء أمّته من جهة ، وتثير مشاعر الفرنسيين ضده من الجهة الأخرى ، وكانت جريدة (Le Temps) الفرنسية وهي من كبريات الجرائد الفرنسية قد خاضت ضدّه معركة كبيرة ، وأسمته هو وابن جلول والعقبي بالمهيّجين وخصوصا بعد فشل زيارة رينييه ، واعتبرته معاديا لفرنسا ، ويشكّل خطرا على وجودها في الجزائر و فما كان منه إلاّ أن ردّ عليها :

[... فهي تقول وأنفُ الحقيقة راغم : إن المهيّجين الذين هدأ فورانهم إثر زيارة مسيو (ريني) قد عادوا فجأة إلى ميدان الإثارة ، ومن الممكن أن يقودوا الأمّة إلى فاجعة قسنطينة المؤلمة.



ليس من المعقول ولا من الموضوعي أن نتحدّث عن دور ابن باديس في مشروعه الإصلاحي" التحريري'الرائد الجبّار دون الحديث عن جانبٍ مشرقٍ من شخصيّته العلميّة

23 شكيب أرسلان شخصية عربية بارزة وفاعلة؛ اشتهرت بلقب (أمير البيان) ولد في الشوف بلبنان في 25 من ديسمبر 1869، كان ناشطا سياسيا كبيرا وقوميا ثائرا دعم القضايا العربية بقلمه وفكره وجهده وخصوصا قضايا الشعوب التي كانت تناضل من أجل استقلالها ، كانت له علاقات ممتازة ومميّزة بكثير من الشخصيات الجزائرية كمصالي الحاج الذي أثّر في فكره وتوجهاته ، كما كانت له علاقات بابن باديس والطيب العقبي وأبي اليقظان وأحمد توفيق المدني، والشيخ محمد سعيد الزواوي وغيرهم ، ويعود له الفضل في تقريب وجهات النظر بين نجم شمال إفريقيا وجمعية العلماء وبين مصالي والجمعيّة ،فقد استطاع أن يقنع الطرفين بأن الجزائر أحوج ما تكون في هذه المرحلة العسيرة من تاريخها إلى توافق واتحاد الطرفين ، و ففي احتفال أقامته جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بباريس يوم 1937/01/21م بمناسبة عيد الأضحى ، حضره إلى جانب الأمير أرسلان كل من مصالي الحاج والفضيل الورتلاني وسعيد صالحي وبحضور الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة ، أعلن هذا الأخير في خطابه أن أرسلان قد وفّق بين العلماء والنجم المنحلّ ، لأن رفعة الجزائر تتوقّف على الطرفين ، أحدهما لحماية الماضي والدين واللغة والتاريخ ، والآخر لتنظيم الكفاح . ولعلّ هذا التصالح تجسّد في أن الجمعية انبرت للدفاع عن مصالي وجماعته لما تم القبض عليهم من قبل السلطات بحجة التشويش وإثارة الفوضى.
(بناة المجد : مصالي الحاج/دار الخليل/الجزائر:2014)

والفكريّة ،وهي شخصيةُ المعلّم الذي استيقن في قرارة نفسه أن الأمة التي لا تقرأُ ولا تَتعلَّم أمّةٌ مكتوبٌ عليها في سجلّ الخلود أن تَفنَى وتَزُولَ ، وأن أيَّ حركة تنويريّة أو تجديديَّة بلِسَان هذا الزّمان لا يمكنُها أن تمضِي بِضَع خُطْواتٍ ليَدِبَّ الوَهنُ في وِصَالهَا فترجع على أعقابها.

كان العلاّمة عبد الحميد ابن باديس المحّرر والمجاهد والعالِم المتشبِّع بالثقافَة العربيّة الإسلاميّة من مَصادِرِهَا الصَّحيحة الرّاسخة شديد التَعلُّق برِسَالَة التَّعليم؛ راسخَ الإيمان بما يمكِن أن يحقِّقَهُ العِلْم من سَعادة وَرفَاه للأفراد والأُمم ،وكان مسعَاهُ في ذلك لأنموذَجا رائعًا للتأسِّي بالرسولِ عليه الصّلاةُ والسلامُ الذي خَاضَ هذه الطَريق من قبله، فرسالاتُ الأحبّة الأنبياءِ والرُّسلِ . عليهم أفضلُ الصلاة والسلام ولأزكى التسليم . من آدَم إلى الحبيب محّمد المصطفىﷺ كانت في مجموعها رسالات تنوير و تحرير تأخُذ بِيَد البشرية في مجاهِلِ الحياةِ و مدلهَمّاتها، وليس غريبا أن نجده يسلك هذا الدربِ المقدّسِ ولكن في ظرف أقَلّ ما يمكن أن يُقَالَ عنه أنّه عصيبٌ!! درب تلاحقه على مداه عيون الاحتلال الفرنسي الذي ما كان يريد لهذه الأُّمة أن تحيا حياةً طبيعيةً ، وأن يتنفّس أبناؤها هواءً نقيًّا طبيعيًّا لا لوثة فيه ؛ كما تفعل غيرها من الأمم.

كان الكثيرون قد يئسوا من حال الأّمة الجزائرية وظنّوا أنها ماضية برضى أهلها وعن طواعيةٍ منهم أو مُكْرَهةً إلى فنَائِهَا وزَوالهَا ، لما رآه من انعدامِ أيِّ حركة تعليميّة يمكنها أن تأخذ بيد هذه الأّمة المَنهكَة التي غشت سحب الجهالة والأميّة سماءها ، فأمسى المتعلمون فيها يتضاعفون من المئات إلى الآلاف!!

وكانت فرنسا الاستعمارية ذات المساعي الرهيبة في تجهيل هذا الشعب المغلوب على أمره قد استنفرت كل أدوات التجهيل و التفقير لتصنع بعبقريتها "الدنيئة" ملحمة من ملاحم البؤس الإنساني في التاريخ لم يسبقها أحدٌ إليها24 ؛ يقول الشيخ ابن باديس: [إنّ الذي يعلَم تاريخَ الجزائر الحديث يجزم بأنّ هذا الشعب شعبٌ حيٌّ لا يموت !! لقد كان هذا العبد يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر ريقًا من الفناء، ليست له مدارسُ تعلّمه،وليس له رجال يدافعون عنه، ويموتون عليه. بل كان في اضطراب دائمٍ مستمرٍّ، ويا ليته كان في حالة هناء.] إن هذا الواقع البائس الذي يعيشه الجزائريون الذي فرضه الاحتلال وأوجده و الذي صّوره الشيخ ابن باديس، كان يبعث في نفوسِ أبناءِ الأّمة الأمَل والتطلّع إلى بارقَةٍ من السّماءِ

** 24

تسعى إلى تغيير هذا البؤس والجهل اللذين استشريا في نسيج المجتمع الجزائريّ وتساوت فيه الحواضر والأرياف وكانت آمال هذه الأمّة في ظهور جمعية تتولّى توحيد جهود العلماء الغيورين الحريصين على تغيير واقع الشعب الذي كان في نظره قد وصل إلى أعلى درجات الفساد والانحلال وبالتالي فإن هذا الأمل قد آن له أن يتحقّق فتأسّست جمعيةُ العلماءِ الجزائريين ، التي فتحت الطريقَ أمامهُ ليخوضَ في رسالته التي كثيراً ما حلُم بها وهي إحياء الشعب الجزائري من سُباته الطويل ووضعه على الطريق الصحيح لينحو منحى الشعوب العربية الأخرى التي تحرّرت من ربقة الاحتلال والجهل ، حيث شرع في القيام بنشاطه الإصلاحي تحت مظلة الجمعيّة التي كان ولاؤها له عظيمًا ، وخاصّةً الشيخ ابن باديس الذي كان الأستاذَ الأعظَم. ويمكننا أن نتناول جهاده الإصلاحي والدعوي وأوله نشاطه في مجال التربيّة والتعليم وقبل الخوض في الدور الذي لعبه في مجال التربية والتعليم ونشر المعرفة ينبغي علينا أن نحيط إلمامًا بأحوال الجزائريين الثقافية (العلمية والمعرفيّة) في الحقبة الاستدمارية التي سبقت إشراقة رسالته التنويرية، والمؤسِفُ أن هذه الحقبة هي مجموعة حِقَبٍ إحداها أسوأُ من سابقتها!!

ذلك أنّ أغلب الدراسات والأبحاث التي تناولت الموضوع تتفق على أنّ سجّل فرنسا في هذا الموضوع الحيويّ وما فعلته بهذا الجانب من حياة الأمّة كان سِجلَّ العارِ والخِزْيِ ، فقد اجتهدت بكل ما ملكت أن تُدمِّر العُقُول وأن تغلق العقَل الجزائري وتحول بينه وبين أي منفذٍ أو مسلكٍ يمكن أن يخوضه لينفتح على العلوم والمعارف التي كانت سرَّ سعادةِ ورُقِيِّ كثيرٍ من الشعوب في ذلك الزّمنِ العَصِيب ، بل إنها أرادت أن تكون وصيًّا عليه ، يتحكّم في كلّ صغيرة وكبيرة من فصول حياته!!

حيث تختار له من المدارس ما يناسِبُهُ ، ويتماشى مع مخطّطاتها المشبوهة، فحرصت وكثّفت الجُهُود لإشاعَةِ التّعليم الفرنسيِّ لتُكوِّنَ شَرِيحةً عَرِيضَةً ممَّن يحمِلُون الثّقافَةَ الفرنِسِيَّةَ الأُورُبيَّةَ التي يمكن أن تدعم الاحتلال في تعميم هذا التوجه على الشعب كله، فأقامت المدارس في التجمعات السكنيةِ الحضريةِ الكبيرة ، وبأموال هذا الشعب ومُقدّراته ، وأوكَت إلى الأساتذة الفرنسيين والمستشرقين التعليم بها، وفي المقابل وقفت من التعليم العربي موقفًا مُعاديًا، وتذكُر الإحصاءَاتُ أنّه بين سنتي:1907/1908م توزع عدد الطلبة الجزائريين في جامعة الجزائر كالتالي:25في مدرسة الحقوق ،12في مدرسة الطب ،10 في كلية

الآداب، وإذا علمنا أنه حتى نهاية سنة 1909 لم يتخرج من مدرسة الطب الفرنسية التي أنشئت منذ سنة1858 م جزائريٌّ واحدٌ في هذا الاختصاص ، ندرك ما آل إليه تعليم الأهالي الجزائريين تحت ظل الاستعمار الفرنسي .25.

وأمام هذه الأبواب الموصدة في وجه التعليم العربِّي وفي طريقِ اللغةِ العربيَّةِ كان بابٌ واحدٌ ضيِّقٌ قد فُتِحَ لنخبة من أبناء هذه الأمَّة وهو نوعٌ من التعليم الذي اختاره الفرنسيون لقطاعٍ محدودٍ من أبناء الجزائريين لتخريجِ لفيفٍ من الموظفين والمستخدمين ليكونوا كتّابا وأعوان يمكنهم أن يكونوا الحلقة الواصلة بين الاستعمار وهذا الشعب، ولم يكن هذا التعليم تعليما بالمعنى الذي يمكن أن يتصوره القارئ ، فقد كان أقربَ إلى التكوينِ الموجِّه لِلفكرِ والشخصيةِ والمؤثِّرِ في الدّين والاعتقاد ، وقد كشف الشيخ العلامة ابن باديس حقيقة هذا النوع من التعليم بقوله: [وكان أبناؤنا لا يذهبون يومئذ إلا للمدارس الأجنبية ، التي لا تعطيهم غالبا من العلم إلاّ ذلك الفُتَات الذي يملأُ أدمغتَهم بالسَّفَاسِفِ حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينَهم ولُغتَهم وقوميَّتهم ، وقد يُنكِرونها ، هذه هي الحالة التي كُنَّا عليها في تاريخِنا الحديث ، وما كُنَّا لِنَرْضَى بها أو نَبْقَى عليها ، وقد وَلَّتْ تلك الحالةُ وأصبحت مساعي المسلماتِ الجزائريّاتِ تأبى إلاّ أن نبقى كما وُلِدنا وتأبى ثَقافتُنا إلاّ أن نرجعَ إلى ما عليه كنّا..] 26

استبسل الاستعمار الفرنسي في محاربة المعرفة والتعليم واستمات في ترسيخ سياسات كبرائه الرامية إلى الّرمي بهذه الأمة إلى مهاوي الجهالة ، فحُورِبَ التعليمُ ومُنِعَ تعليمُ اللّسانِ العربِّي باعتبارِه الوعاء الذي تصبّ فيه الهويّة الحقيقيّة الأصيلة لهذه الأمّة ، وأصدرت السلطات قانونَ تحريمِ تعليمِ العربية إمعانًا في حمل الناس على أن يزهدوا في تعلّمها أو تعليمها ليبقى الفضاء مُتَاحًا والأبوابُ مفتوحةً لتعليمِ لغة الاستعمارِ فَقَط ، ومع ذلك فقد أَظْهَر الجزائريُّون إصرارًا عَظِيمًا على اللُّغةِ العربيَّةِ وتمسَّكُوا بها ولم يرغبُوا عنها ؛ بل إن إقبالهم عليها كان ضعف عداء السلطات الفرنسية لها: [ولما رأوا تصميم الأمّة على تعلّم قراءتها ودينها ولغة دينها واستبسال كثير من المعلّمين في سبيل القيام بواجبهم نحو الدين والقرآن ، واستمرارهم على التعليم رغم التهديد والوعيد ، ورغم الّزجر والتغريم لما رأوا هذا كلّه سعوا سعيهم وبذلوا جهدهم حتى استصدروا هذا القانون : قانون

25 د:عمار هلال" الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشّام/ص:172.

26 آثار الشيخ ابن باديس.

العقاب الرهيب] 27 أدرك ابن باديس وصديقه الإبراهيمي أن الجهالة التي استشرت في المجتمع الجزائري عمومًا إذا ما استثنينا نسبة من الأثرياء كانت تعلم أبناءها على الطريقة الفرنسية ، ليتسنى لهم الحصول على المكانة اللائقة في المجتمع الجديد الذي تريده فرنسا، أدركا بأنّه مسعى تجهيلي تخطّط له سلطات الاحتلال بكلّ إحكام ليظل المجتمع الجاهل أداة طيّعة في يد المحتل لا يمكنه التفكير في النهوض أو الثورة على الاستعمار والمطالبة بتغيير الواقع، وكان هذا المفهوم قد انتشر وذاع لدى كثير من الجزائريين وكان التعبير العامي أن فرنسا " تبغي أوتحّسْ ترّجعنا أُكُلْ نصارى!!" 28 وهذا ما سمعته من أفواه بعض الشيوخ الذين عاشوا فترة الاحتلال الفرنسي وكانوا على أميّتهم يدركون ذلك والفضل في هذا الوعي إنما يعود إلى ابن باديس أولا وجمعية العلماء وشيوخها ثانيا .ذلك أن الرجل استطاع بدعوته الربانية الخالصة أن يفتح بصائر الناس على مدى الخبث الذي تنطوي عليه مشاريع الاستعمار البائس البغيض.وأن يمتّن الروابط التي تصلهم بدينهم وأمّتهم وأرضهم ، وهي لم تضعف ولم تكن عرضة للتلاشي كما كانت يومئذ.

لقد أسلفت القول بأن الجزائريين كانت أحوالهم قبل الغزو الفرنسي أحسن مما آلت إليه بعده، وهذا في جميع المجالات ، ومنها التعليم ورأينا بأن التعليم كان منتشرا إلى حدّ كبير في الجزائرحدٍّ قد لا يصدّقه بعضنا ؛ ويعتبره ضربًا من المبالغة غير المبرّرة.

كان الأهالي يحرصون على التعليم العربي والديني ، وكان إجلالهم للعلم والعلماء حاضرا في عاداتهم الّراسخة ، فالعلماء يأتون في الصفّ الثاني بعد الأنبياء ، ولم يكن الناس ينسون أو يغفلون عن دلالات حديث الرسولﷺ : ﴿العلماءُ ورثةُ الأنبياء...﴾،كما أنهم ينفقون بسخاء على التعليم وعلى رجاله رغم الظروف الصعبة والفقر، ويكاد أغلب الباحثين يجمع على أن الجزائر كانت حالها ومستوى التعليم فيها أفضل وأرقى بكثير مما كان عليه التعليم في غيرها من البلاد العربية وخصوصا المجاورة لها.

وقد شاءت فرنسا التي كانت دولة استعمارية تختلف عن غيرها من الأنظمة الاستعمارية أن تمحق التعليم بين أوساط هذه الأمة الذكيّة المتمسكّة بدينها والمتشبثة بلغتها و حضارتها وعاداتها.

---

27 "دفاع عن اللغة العربية" مقال لابن باديس من كتاب ابن باديس وعروبة الجزائر محمد الميلي/الصفحة:151.

28 التعبير العامي الجزائري ل: (تريد فرنسا أن تجعلنا جميعا نصارى)!!

فرنسا أرادت أن تغيّر هذا الواقع الإيجابي إلى واقع مخالف؛ وعندما نقول واقعا مخالفا فنحن نعني . بالطبع . واقعا سيئا بائسا ، تسري فيه الجهالة سريان السّم في البدن؛ وتنتشر فيه العادات الفاسدة انتشار الملح في كوب ماء!!

واقع يشجّع على بقائها في هذه الأرض ويتيح لها الاستفادة من مقدراتها ما دام أهلها لا يملكون من الوعي والنضج ما يفتح عيونهم على حقيقة ما يجريفي بلدهم وفي غيره من البلاد.

كتب أحد الجنرالات الفرنسيين إلى نابليون الثالث تقريرا وممّا تضمنه:

[يجب علينا أن نضع العراقيل أمام المدارس الإسلامية ...كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا . و بعبارة أخرى يجب أن يكون هدفنا هو تحطيم الشعب الجزائري ماديا و معنويا!!]

وما أخطر هذا الرّأي الذي يفسّر لمن يدافعون عن فرنسا ويجهدون أنفسهم في البحث عن مسوغات الاحتلال؛ ممّن كان الفكر الفرنسي أمّهم بالرضاع، غير أن الحقيقة التي شاء الله لها أن تظل ساطعة سطوع الشمس في كبد السماء هي أن فرنسا حكمت على هذه الأمّة بأن تُلقى في قعر التاريخ السحيق،كيلا تقوم لها قائمة.

وما نعيشه من تعسٍّر وتعثُّر رغم مضي عقود من الزمن على استردادنا لسيادتنا على أرضنا ومقدّراتها في نظري الخاص هو الثمرة المّرة للاحتلال الفرنسي؛ ولا أزال أجاهر بفكرتي التي قد يشاركني فيها البعض ، وهي أن ما فعلته فرنسا بالأمّة الجزائرية كان عظيما بل وخطيرا ورهيبا؛ كيف يمكن لأمّة سرى الشلل في أوصالها سريان الدم في العروق أن تنهض بعد أزيد من مائة وثلاثين عاما من التّدجيل التّجهيل والتّفقير؛ بل إنني لا أبالغ إذا ما ذهبت إلى القول بأنه لو كانت أمّة أخرى فُعل بها ما فُعل بالجزائريين لفقدت ارتباطها وانتماءها وهويّتها..والخلاصة أن الاستعمار الفرنسي لم يسلم منه التعليم باعتباره النافذة التي تتطلع منها الشعوب إلى المستقبل، وباعتباره الأداة التي تفتح العيون والبصائر على معاني الحياة وأبعادها.

ومن دلائل سياسة فرنسا (التجهيلية) للشّعب الجزائرّي أنّها تريد أن تحّوله إلى قطعان من الجهلةِ والمتخلفين ليسهل عليها أن تمضي في استنزاف ثروات أرضه والعبث بمقومات شخصيّته التي بدأت تتضعضع ، وكان عدّوها الأول هو التعليم العربّي الذي كان يرسّخ في أذهان الجزائريين ضرورة رفض الوجود الفرنسي ووجوب مقاومة الاحتلال الذي هو الكفّار الذين قدموا إلى الجزائر لتمسيحها، ولعلم السلطات بتأثير ذلك على النّاس أعلّنت خطّة جهنّمية للقضاء عليه تماما وإحلال التعليم الفرنسي محلّه ،واستصدرت الأوامر بالإنفاق على

التعليم الفرنسي بسخاء موازاة مع سياسات التمسيح ، فالتعليم الفرنسي لم تكن أغراضه نبيلة وإنسانية وإنما كانت المدارس الفرنسية تقدّم السّم في الدسم ،ويشير الباحثون في سياسات ومناهج التعليم الاستعماري إنه كان يقوم على مقاربة تقوم على أربعة أصول:

- تمجيد الدولة الفرنسية ، وتصوير الإمبراطورية على أنها راعية لمصالح شعوب مستعمراتها، وإضعاف الشعور القومي لدى الطلبة ليسهل إلحاقهم بالمجتمع الفرنسي.

- ترسيخ العقيدة النصرانية في نفوس الطلبة وتحبيبها إليهم عن طريق تعليم الفرنسية ،وإقامة نشاطات مشبوهة تشجّع وتغري على الدخول في المسيحية.



- ترسيخ اللغة الفرنسية على ألسنة المتعلّمين وتقديمها كبديل للغة العربيّة التي غالبا ما يحرص الأساتذة على وسمها بالقصور والتخلّف وعدم مواكبة العصر والحضارة.

- استئصال أي شعور بالانتماء القومي والديني ، وتصوير الالتزام الديني على أنه مظهر من مظاهر العصبية الدينية التي تتنافى مع تعاليم الشرائع والأديان السماوية.

ولا يمكننا أن ننكر أن هذه المقاربة لم تنجح في التأثير على أغلب التلاميذ،إن ثُلّةً من الكتاب



بسكرة تمثال تكريمي للأب الروحي للتبشير [لافيجري]

الجزائريين ستكون حاملةً لراية هذه الإيديولوجية ومدافعةً عنها ومؤمنةً برسالة فرنسا النبيلة في الجزائر وهؤلاء هم ما يُصطلح على نعتهم بالمستَلَبُون ثقافيًّا وهم ما كان عامّة النّاس يسمونهم " حزب فرنسا" ومنهم أذكر "رابح زناتي" الذي أسس جريدة (صوت المستضعفين) سنة1922م التي حملت شعارا صريحا يقول: (بعيدون عن الأحزاب، بعيدون عن العقائد من أجل ترقية الأهالي عن طريق الثقافة الفرنسية)!!

وكأن هذه الأمّة الجزائرية كان يكفيها الاحتلال الفرنسي وعبثه بالتعليم والدين والعادات ليظهر فيها أنبياء أدعياء يُجاهرون برفض الدين وإبعاده

عن حياة الأمّة كي يتسنى لها أن تمضي في طريق الحضارة والرقّي؛ وما أسخفها من دعوةٍ !! تلكم الدعوة التي ينساق فيها بعض أشباه المثقفين الذين شحنت فرنسا عقولهم بالأراجيف والحماقات ؛ إذ كيف للجزائري الذي كان الإسلام دوما جلدُ عظمه أن يُلقي عنه هذا الإسلام الذي قام على القرآن الذي قال فيه ربّ العزّة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ 29

لقد كانت هذه المجموعة تيارًا يقوى بفعل الدعم الاستعماري ويخفت بفعل المقاومة التي يبديها الجزائريون الذين وعوا حقيقة هذه الدعوات التي يريد التعليم الفرنسي أن يوصلهم إليها وهي فرنسة الجزائر، وقد رأينا كيف أن السلطات الفرنسية الاستعمارية . طبعًا . كانت سخيّة في تقديم التسهيلات لهذا الطابور في إصدار صحف والنشاط والحركة ،بينما كانت على العكس من ذلك في وجه ابن باديس وحركته وغيرها من الجهود والمبادرات ؛ ومن يقرأ التاريخ ويبحر في أعماقه يجد كيف أن السلطات لم تكن تفوّت فرصة دون الإشادة بأبناء فرنسا (هؤلاء المثقفين النجباء الذين كانوا أوفياء للتعميد والتعويذات التي قرأها المبشّرون على أسماعهم ؛ وهؤلاء هم أبناء "لافيجري" وحركته البائسة التي راهنت على اجتثاث الإسلام من القلوب والصدور.

إن هؤلاء كانوا صنيعة الاستعمار الفرنسي لعرقلة مساعي التعليم والتنوير التي بدأها ابن باديس ورفع رايتها ، وليس غريبا أن نجد"سعيد فاسي" وهو أحد أقطاب هذه المجموعة يهاجم علماء الدين ويتهمهم بعرقلة الإدماج، لأنّهم يعملون على تقوية المشاعر الدينية لدى الجزائريين وبالتالي يحولون بينهم وبين الذوبان في فرنسا المسيحية.

إنّ الحديث عن مستوى التعليمفي الجزائر ورقيّه قبل الغزو وما فعلته السلطات في محاربة التعليم العربي أمر صار مسلّمة لا تحتاج إلى برهنة أو تدليل ، والإطالة فيها صارت من باب الحشو التاريخي، ولا تكاد تفتح كتابا تاريخيا إلا وتجد الإحصاءات التي تجمع كلّها على أن جريمة فرنسا كانت فوق ما يتصوره الخيال!!

وكأني بالشيخ ابن باديس . رحمه الله . حين قال بأن الجزائر ليست فرنسيةً ،ولم تكن فرنسيةً يوما ، ولا يمكن أن تصير فرنسيةً !! كان يرّد على هذه الغربان التي كانت تنعق في سماء أبى الله إلاّ أن تكون مظلّة للمؤمنين الموحّدين.

لقد وجدت خلال قراءتي لما توفّر لدي من كتب التاريخ والبحوث أنّ فرنسا عندما دخلت قواتها

---

29 سورة الإسراء/الآية:09.

الجزائر كانت نسبة المتعلمين فيها ممّن يقرأون ويكتبون تفوقَ الأربعين بالمائة بشهادة " الجنرال دوماس "في أحد تقاريره وهذا الرأي يظهر أن الوضع التعليمي في البلاد لم يكنمثاليّ ا ، وفي المقابل لم يكن متردّيا إلى حدّ أن تتخذه السلطات تبريرا وحجّة تستند إليها في تفسير ما فعلته بهذا التعليم، !!

من بين الذين كتبوا عن موضوع التعليم "هنري كلين" الذي ذكر في كتابه [تاريخ الجزائر] أن مجموعة كبيرة من المؤسسات الدينية قامت السلطات بمصادرتها، علما بأنها كانت تقدّم التعليم العربي ويتولى مهام التدريس في هذه المؤسسات معلّمون وأساتذة جزائريون ممّن درسوا في الزيتونة أو الأزهر، وهذا كلّه في إطار مساعيها المعروفة ، كما يذكر غيره30: أن العاصمة وحدها كانت تحوي176 مؤسسة دينيّة سنة1830 منها:

13. مسجدا جامعا..109 مسجدا..23 قبّة وزاويّة.وفي السنة 1862 م لم يتبقّ من هذا العدد المعتبر نتيجة النهب والاستيلاء والتخريب غير67 مؤسسة تتوزّع كالآتي:

. 09 مساجد جامعة.. 19 مسجدا..15 قبّة.. 05 زوايا.

وهذه الشهادة تثبت للجميع أنّ فرنسا كانت تسعى جاهدة إلى تقويض التعليم العربي في الجزائر والقضاء على كلّ ما من شأنه أن يحفظ للجزائريين ما يربطهم أو يذكّرهم بانتمائهم إلى أصولهم العربية الإسلامية .

وقد تزامن وترافق هذا التضييق على التعليم العربي مع حملة شعواءً مسّت الصحافة والطباعة العربيّتين، فقد كانت السلطات تمنع الجزائريين من فتح المطابع العربيّة وفي المقابل تشجع المطابع الفرنسيّة فضلا على أنّها كانت ضمن مخططها التجهيلي ترمي إلى محو الحرف العربي كتابة ولفظا من الحياة اليوميّة للجزائريين، وقد اضطّر الأهالي أمام هذه الإجراءات السافرة الظالمة أن يبحثوا عن البدائل،فكانت الكتاتيب المنتشرة في الأرياف وبعض المدن وبعض الصحف العربيّة والهجرات العلميّة إلى تونس والأزهر وغيرهما من النوافذ التي تتيح للجزائري أن يظل مرتبطا بلغته و أمّته.هذا كلّه بالإضافة إلى المدارس التي أنشأتها جمعيّة العلماء المسلمين التي أعتبرها بحقّ راعية التعليم في الجزائر،هذه الجمعيّة التي ناصبتها فرنسا العداء لأنّها وقفت في وجهها وكشفت زيفها وأغراضها الدنيئة وكان المخبرون الفرنسيون يخوّفون السلطات

---

30 (Devolulx).

ممّا تقوم به إلى درجة أن أحد الجنرالات كتب في تقريره إلى السلطات: [إن جمعيّة العلماء أخطر علينا من كلّ خطرٍ!!

إنّها ترسّخ في نفوس الجزائريين مشاعر الحقد علينا ، بل وتبحث في القرآن عمّا يؤكّد وجوب معاداتنا!!]

إنّ تحطيم الشعب الجزائري ماديًّا ومعنويًّا هو الرسالة الحضارية التي حملها الفرنسيون يوم توجّهوا بأساطيلهم إلى تدمير دولة كانت تتمتّع بنوع متميّز من الاستقرار والرفاهية ، وكان حضورها السياسي يثير الإعجاب والتقدير.

لقد عمد المحتّل بكل قواه إلى تخريب وتهديم المؤسسات الثقافية رغم تواضعها ذلك في مسعى سياسي استدماري ضمن الحرب الشاملة ضد هذا الشعب الأعزل. وقد ركزت فرنسا معاول هدمها على المؤسسات الدينية ، وعلى رأسها المساجد و الجوامع و المدارس و الزوايا ، لما لهذه المؤسسات من دور في الحفاظ عل مرتكزات الشخصية الوطنية للشعب الجزائري و دعم لانتمائه الحضاري العربي الإسلامي .

و كان من نتائج سياسة الهدم هذه ، تجهيل أكبر نسبة من هذا الشعب ومن بين هذه المؤسسات التي كانت عرضة للتهديم أو التخريب أو التأميم أو التحويل مساجد وجوامع كثيرة ، ويذكر التاريخ أنّ مدينة الجزائر كانت تضم و حدها 176 مسجدا قبل الاحتلال الفرنسي لينخفض هذا العدد سنة 1899م ليصل إلى خمسة فقط ،و أهم المساجد التي عبث بها الاحتلال نذكر :

- جامع القصبة تحول إلى كنيسة الصليب المقدس.

- جامع علي بتشين تحول إلى كنيسة سيدة النصر.

-جامع كتشاوة حول إلى كنسية. و كانت الحال نفسها في باقي المدن الجزائرية، و تعرضت الزوايا إلى أعمال الهدم ذاتها و بعضُها بِيَع أوحُوِّل إلى اسطبلات ومستودعات، و حسب الإحصاءات الفرنسية ، فقد تعرضت 349 زاوية إلى الهدم و الاستيلاء . ومن أشهر الزوايا التي اندثرت من جراء هذه السياسة زاوية القشاش و الصباغين و المقياسين . وقد شعر الساسة الفرنسيون بخطورة ما يمثله التعليم العربي ، فاتجهت أنظارهم إلى المدارس التعليمية فيها .حيث تم قطع التموين المالي عنها ، الذي كان يأتيها من الإيرادات الوقفية .

وقد عرفت المدارس المصير نفسه، ك "مدرسة الجامع الكبير" و "مدرسة جامع السيدة" وكمثال عن التدمير الذي تعرضت له هذه المؤسسات ، نذكر أنه في مدينة عنابةالتي كان بها قبل الاحتلال تسعٌ وثلاثون مدرسة إلى جانب المدارس التابعة للمساجد والتي لم يبق منها غير ثلاث مدارس فقط . 31

أمام هذا الواقع رأى ابن باديس أن الحّل للمعضلة التي تعصف بالمجتمع الجزائري لن يكون إلاّ بالتربية والتعليم، فهما أداة فّعالة لتقويم السلوك وتصحيح المفاهيم وتقويم العقول ،لذا بادر ابن باديس إلى إرساء منظومة تربوية تعليمية تراعي ما هو متاح من إمكانات ماديّة وبشرية وتتوافق مع الأهداف المرجّوة منها32.

إن رسالة المُحّرر التربوية والتعليمية لم ترتبط بشخصيته كمعلّم فحسب ، وإنما تعدّته إلى تسيير منظومة تربوية شاملة في المدارس الحّرة والمساجد والصحافة ،وكان فيها مثالا للرجل التربوي المؤمن بخطورة هذه المهّمة التي تحفّها التحديات



والممنوعات والصعاب ، ولا يمكنها أن تكون في متناول أيّ كان،إنه المعلّم الذي لا يمكنه أن يغفل عن دور هذه الرسالة وعلاقتها بما هو أهّم وهو حال العلماء وواقع الأّمة ؛ لذا كان حريصًا على إصلاح التعليم باعتباره أداة التحّرر الأولى:

[لن يصلُح المسلمون حتى يصلح علماؤهم ، فإنّما العلماء من الأّمة بمثابة القلب ، إذا صلح صلُح الجسد كلّه ، وإذا فسد فسد الجسدُ كلّه ، وصلاح المسلمين إنّما هو بفقههم الإسلاَم، وعملَهم به ، وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم ، فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم ، ولن يصلح العلماء

31ـ الشيخ البشير الإبراهيمي (سلسلة بناة المجد) المؤلف/دار الخليل /الجزائر 2013..

32 أعلنت جريدة "الشهاب" عن إنشاء 70 مدرسة، إلى غاية سنتي 1934 - 1935، مكونة من قسم أو قسمين وموزعة على مختلف جهات الوطن، يدرس فيها 3000 تلميذ،لذا فإن جمعية العلماء، التي تم إنشاؤها سنة 1931، قد نشرت، سنة 1950، قائمة من 124 مدرسة، بها سلك تربوي يضم 274 معلما. وأعلنت الجمعية، سنة 1954، عن عدد 40000 تلميذ يرتادون مؤسساتها المدرسية.

إلاّ إذا صلح تعليمهم ، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلّم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته ، ما يستقبل من عمله لنفسه وغيره ، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعلّم]33

وكان نشاطه التعليمي مميّزا فقد بدأ بإلقاء الدروس في الجامع الأخضر مع مطلع الحرب العالمية الأولى سنة1914م الموافق ل:1332 ه وكانت دروسه تدوم النهار كاملاً عدا أوقات الصلوات وفق رز نامة خاصةٍ بأعمار الطلبة يقدّم فيها دروسًا في تعليم القرآن والتفسير وعلوم اللغة والحديث الفقه والأصول، ولم يقتصر نشاطه التربوي والتعليمي على المسجد الأخضر بل تعدّاه إلى مسجد سيدي قموش ومسجد سيدي عبد المؤمن،كما كان يقوم في أيام الراحة الأسبوعية وأيام الإجازة الصيفية بجولات تعليمية ووعظية في مناطق عدّة من الجزائروبعد بضع سنوات من التّعليم المسجدي رأى جماعة من الأعيان الفضلاء المتصلين به تأسيس مكتب يكون أساساً للتّعليم الابتدائي العربي سنة 1926 م، انبثقت عنه سنة 1930م مدرسة جمعيّة التربية والتّعليم الإسلامية.ودعا الجزائريّين إلى تأسيس فروع لها في أنحاء البلاد.

وحرصا منه على رعاية الطلبة كّون لجنة للعناية بهم ومراقبة سيرهم والإشراف على الصندوق المالي المخصص لإعانتهم، وأرسل المتفوقين والقادرين منهم على مواصلة الدارسة العليا إلى جامع الزّيتونة والأزهر. وحثّ على تعليم المرأة34 ، وأولى تعليمها اهتماماً كبيراً35ً، فألقى دروسَ وعظٍ خاصّة للنساء بالجامع الأخضر، وخص البنات بدروس في مدرسة جمعيّة التربية والتّعليم، وأقر لهن مجانية التّعليم، وسعى لتمكينهن من مواصلة التّعليم الثانوي والعالي في المشرق العربي. يؤكّد د: خالد النجّار ذلك بقوله : [حثّ ابن باديس الجزائريين على تعليم المرأة، وإنقاذها مما هي فيه من الجهل، وتكوينها على أساسٍ من العفة وحسن التدبير، والشفقة على الأولاد، فقد خصها بدروس في مدرسة التربية والتعليم مرّة في الأسبوع طيلة خمس سنوات الأخيرة من حياته، كما قام بترغيب زملائه العلماء أن يقوموا بمثل ذلك في مدنهم وقراهم، فساروا على نهجه. ولما امتلأت المدارس بالبنات، وأتممن تعلمهن بالمرحلة الابتدائية، هيأ لهن الشيخ ابن باديس الطريق إلى المشرق العربي

33 ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير/ محمد بهي الدين سالم/دار الشروق/ص:47.

34 ابن باديس من أوائل الذين دعوا إلى إعادة النظر في مكانة ودور المرأة الريادي في التربية.

35 سبق وأن أشرنا إلى موضوع اهتمام ابن باديس بتربية المرأة ، وهذا ضمن تعرّضنا لدورها في عملية التحرير.

وبالضبط إلى سوريا سنة (1939م) ليتممن تعليمهن الثانوي والعالي بمدرسة «دوحة الأدب» لكن لم يكتب لهذه الخطوة النجاح بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية صيف هذه السنة، ثم عاجلته المنية، فتعطل المشروع تماما.]36

وفي سبيل إصلاح التّعليم وترشيد المناهج التّربوية في الجزائر دعا رجال التربية والتّعليم إلى مؤتمر عقد عام 1937م بنادي الترقّي لتبادل الآراء فيما يهم التّعليم العربي الحّر37 ومدارسه ومساجده ونظمه وأساليبه. كما شارك في محاولة إصلاح التّعليم في جامع الزيتونة 38 وبعث بمقترحاته إلى لجنّة وضع مناهج الإصلاح التي شكّلها حاكم تونس عام 1931 م، وتضمن اقتراحه خلاصة آرائه في التربية والتّعليم.

ينبغي أن نعلم أيها الأماجد أن الشيخ ابن باديس ـ رحمه الله ـ كان صاحب المشروع النهضوي الأّول بالتعليم العربي في الجزائر، فقد علّم وأنشأ المدارس ، واجتهد لوضع المناهج، وجمع المال للإنفاق على

36 ابن باديس رائد النهضة العلمية والإصلاحية في الجزائر/د: خالد النجّار ص:23.

37 هذا المسعى يكشف بُعْدَ النظر الذي ميزّ الرّجل،فهو يؤمن بضرورة إشراك الكفاءات في التصوّر والمسؤولية.

38 ـ ابن باديس منظّر في علمي التربية والمناهج،وحبّذا لو يُعنى الباحثون بدراسة آرائه ونظرياته في هذا الشأن.ويتناولوها بالدراسة والتحليل لتوظيفها في مساعي الإصلاح التربوي.

هذه الحركة التعليمية الجبارة التي لا تقدر عليها إلاّ الأمم الجبّارة ذات المداخيل المعتبرة ، ورافع عن المعلّمين وعن المدارس على صفحات جرائده وفي مخافر الشرطة الفرنسية ، وما ذلك إلاّ إيمانا منه بأن التعليم هو مفتاح الخلاص والخروج من هذا الواقع المّر ، ولنصغ إليه وهو يخاطب الأّمة في الشهاب بهذا الشأن: [..وهؤلاء رجال التعليم في بجاية ، وباتنة وغيرهما. يُساقون إلى المحاكمة مّرة بعد الأخرى ويُغَرمون من أجل التعليم ويُهدّدون بالسجن، وهذه مدرسة دار الحديث بتلمسان مُغلقة إلى اليوم!!

وكم أذكر؟ وكم أعدّد؟.

فلقد هبّت الأّمة لتعلّم دينها في جدّ ونشاط فاق السنوات المتقدّمة فعولجت بهذه البلايا والمحن؛ وفيم هذا كلّه؟ على من ثُرتم؟ وإلى من أسأتم؟ وأيّ حدود تعدّيتم؟ وماذا تبتغون؟

ـ لا والله ما ثرتم إلاّ على الجهل والرذيلة ،وما أسأتم إلا للأثرة والجبريّة، وما تخطّيتم إلاّ حدود الجمود والخرافة ، ولا تبغون إلاّ الحقّ والخير والعدل والإحسان.

ألا في سبيل الله ما لاقيتم... ألا في سبيل الله ما أنتم ملاقون]39

39 الشهاب/الجزء:04/المجلّد:14/ الصفحات:100-103.

إن العلاّمة ابن باديس يعلم علم اليقين أن هذه الحركة التعليمية التنويرية لن يقبلها الاحتلال الفرنسية لأنّها مسامير تُدَقُّ في إعداد نعشه ، ولن يحوط دعاتها وأبطالها بالدعوات والمباركة ، وإنّما سيلقون العنت والاضطهاد والملاحقات ؛ لذا فإنه كان حريصا على أن يقويّ إرادة هذه الأّمة في مشروعها لتنهض وتتعلّم وتبقى محافظة على ثباتها وموقفها.

إنّه يكشف لطلائعها في كّل برّ وفّج مقدار الأذى الذي تلاقيه على يد الشرطة والعساكر الفرنسيين ، وما يُمارس في حقّها من الاضطهاد والتضييق ، لا ليجلب تعاطفها مع رسالته ومشروعه فحسب ، ولكن ليبيّن لها أن مقدار الرفض الفرنسي للتعليم في الجزائر يبيّن أهميّة التعليم وخطورته على الاحتلال وتواجده بهذه الأرض العربية المسلمة.

وغالبا ما كان ينتفض مستنكرا القرارت المتعسّفة للسلطات الفرنسية المتخذة لمنع التعليم العربي ومحاربة اللغة العربيّة في الجزائر ، ولا أدلّ على ذلك من ثورته عندما أصدر ت السلطات قرارها بمنع التعليم على الأفراد والجمعيات دون الحصول على موافقة السلطات حيث اعتبر هذا القرار الجائر بمثابة مكيدة و[سيرى الذين دبّروا المكيدة ، والذين لم يتفطّنوا لها فشاركوا في تنفيذها، أنهم ما أصابوا بهذه المكيدة إلاّ سمعة فرنسا في العالم الإسلامي والعربي، في الوقت الذي تنفق فيه الملايين على تحسين سمعتها فيها، ومكانتها عند الجزائريين في أحرج أوقاتها وأشدّها حاجة إلى الأمم المرتبطة بها ، ولا يحيق المكُر الّسيء إلاّ بأهله فهل ينظرون إلاّ سنّة الأّولين؛ فلن تجد لسنة الله تحويلا]40

وهذا التحليل للأثر الذي سيتركه هذا القرار الفرنسي المتعجّل من شأنه أن يجعل فرنسا تعيد النظر في حساباتها ، وتتراجع عن قرارها، وإن لم تفعل كما أثبت التاريخ، كان ابن باديس يدافع دوما عن حرية الأّمة الجزائرية في التعليم ، وحّرية نخبها الرائدة في أن تتولّى هذه المهّمة النبية ، وكان يرى ويريد لباقي الجزائريين أن يشاركوه الرأي في أن السكوت عن هذه التصّرفات من شأنه أن يجعل السلطات تتمادى في جبروتها وطغيانها.

ما كانت مناسبة لتمّر إلاّ ونجده يجاهر بتصريحاته النارية متحديا الاستعمار وجنوده وشرطته وأتباعه وحلفاءه بأن التعليم في الجزائر هو قدر هذا الشعب وحاضره ومستقبله ، ولا محيد عنه مهما فعلت فرنسا، وكانت تصريحاته رسائل واضحة غير مشّفرة لمن يراهنون على سياسات الاستعمار بخصوص التعليم والهويّة:

40ابن باديس وعروبة الجزائر / محمد الميلي. الصفحة:152.

قد فهمنا . والله . ما يُراد بنا وأننا نُعلن لخصوم الإسلام والعربيّة أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا ، وسنمضي . بعون الله . في تعليم ديننا ولغتنا رغم كلّ ما يصيبنا ، ولن يصدّنا عن ذلك شيء فنكون قد شاركنا في قتلها بأيدينا ، وأننا على يقين من أن العاقبة . وإن طال البلاء . لنا والنصر سيكون حليفنا لأنّنا قد عرفنا إيمانا ، وشاهدنا عيانا أنّ الإسلام والعربيّة قضى الله بخلودهما ولو اجتمع كلُّهم على محاربتها.] 41

ولم يكن ليكتفي بالتصريحات والمقالات التي تندّد بقوانين وتشريعات الاستعمار المناوئة للتعليم وحريّة المعلّمين في بلاده فحسب ، بل كان يسخّر بأموال الجمعية وأمواله المحامين للدفاع عن هؤلاء ، وكان يستعين بأصحاب النفوذ من الجزائريين الأعيان ليتدخّلوا في كثير من الأحيان لإطلاق سراح معلّم محتجز أو السماح بإعادة فتح مدرسة قرآنية ، وكان يرى بأن سمّو الغاية ونبل المقصد هدفه الأوّل والأخير ، بل إنه لعلمه بأن كثيرا من المعلمين يضطهدون في كثير من المدن والقرى والأرياف ولا يجدون ما يتدرّعون به لمواجهة القهر والجبروت الفرنسي إلاّ الله، لعلمه بذلك نشر بيانا في جريدة

41 من مقال(يا لله..والإسلام والعربية في الجزائر)من كتاب(ابن باديس وعروبة الجزائر)لمحمد الميلي الصفحة:150.

البصائر يوم الجمعة الثامن من أبريل سنة1938م جاء فيه:

[ندعو كلّ معلّم مكتب قرآني أو مدرسة طلبت الّرخصة من الإدارة ولم تُجَبْ، وكلِّ معلّم مكتب قرآنيٍّ أو مدرسة منع من التعليم ، وكّل معلّم نُزِعت منه رخصته . أن يكاتبنا بما وقع له من ذلك ويعرفنا بتفصيله وجميع ما يتعلّق به لنسعى في نازلته السعي المشروع، كما ندعو كلّ من تُعُدِّيَ عليه من معلمي الديانة في المساجد أن يكاتبنا ويعرّفنا لنتتبّع بطريق القانون كلّ من روّعه وانتهك حرمة الدين والمسجد من رجال السلطة كائنا من كان..

كما ندعو كلّ جماعة يريدون تأسيس جمعية وفتح مدرسة لتعليم الإسلام والعربية أن يكاتبونا ويعرّفونا لنرشدهم إلى الوجوه القانونيّة اللازمة.]

هكذا كان عبد الحميد يخوض حربا ولا أعظم الحربًا على الجهالة وشياطينها من فرنسا وأزلامها، وهكذا كان الّراعي لهذه الحركة والذائد عن رجالاتها ، والمدافع عن رسالتهم ، وهكذا كان . رحمه الله . مشّجعا غيره على المبادرة في تأسيس النوادي والجمعيات العلمية ، ولم يكن يحتكر ذلك أو يدّعي خصوصيته بهذا المشروع ، وإنما كان مقصده تشجيع كلّ من يمكنه الإسهام في انتشال الأّمة من مستنقع الجهالة والتخلّف، ولعلّ هذا الفكر الراقي جدير بجماعاتنا الإسلامية وجمعياتنا

اليوم في الجزائر وغيرها من بلاد المسلمين أن تنهج نهجه وتحذو حذوه.

وإذا كنا نرى في أيامنا هذه كلّ جمعيّة ترى بأنها الوحيدة الأقدر على حمل رسالتها وهدفها ، فترى قادتها وزعماءها يستنكفون عن ذكر ما يقوم به غيرهم في الشأن ذاته .

ويرضون بأن يقدموا أنفسهم على أنهم الأجدر والأحقّ،وبذلك فقدت هذه الجمعيات فاعليتها وتأثيرها ولم تنجح لأنّها استأثرت دون غيرها بالذكر والمديح والمجد،محاولة قطع الطريق على الأنداد والمنافسين ، لكن ابن باديس ورغم ما حقّقه ورغم الإنجازات الكبيرة التي تمكّن من تحقيقها ، كان مؤمنا بأن مشروعه أكبر من أن تحمله جمعية العلماء المسلمين لوحدها، فهو مشروع الأمة الجزائرية العظيمة ، ولا بد لكل جزائريٍّ أن يسهم فيه ، فالاستعمار بقّوته وتسلّطه ينبغي أن يواجهه الجميع ، وبذلك قدّم العلامة لنا درسًا عظيما بعدم إنكار فضل الآخرين ، وضرورة التعاون معهم مادام المشروع واحدًا والغاية ذاتها ، ونبذ التصادم وهو الفخ الذي وقعت فيه اليوم كثير من الجمعيات الإسلامية إنْ على مستوى السياسة ، وإنْ على مستوى الإصلاح الاجتماعي.

وغالبا ما كان . رحمه الله . يعترف بأنه ليس الوحيد وليس الأّول على الساحة وإنما سبقه آخرون من باب الموضوعية والأدب؛ ويشيد بأدوار هؤلاء في

الإصلاح والعمل لخدمة الأّمة الجزائرية ؛ فها هو لا يخجل من الإقرار بسبق "جمعية صالح باي" في الإصلاح، ولا يجد في ذلك حرجًا ، لأنّ الغاية واحدة وهي تحرير الأّمة الجزائرية من براثن الاحتلال والجهل والضلال، وما أبشع هذا الثالوث حين يتحالف على مصير أّمة أنهكها الفقر والجوع والليالي الحالكات!!

إن التعليم في نظر ابن باديس وضمن مشروعه التّحرري يشكّل دعامة أساسية تجعل هذه الأّمة تعي وتثق في قدراتها ، وهو يراهن على أنّ هذه الأّمة حيّةٌ باقيّةٌ وأنّ التعليم كفيلٌ بأن يعيد إليها حياتها التي سُلبت منها، ولا شكّ أن واقعها قبل أن تُبعث إلى الوجود كان واقعًا ميئوسًا منه، جعل الشعوب والأمم الأخرى وحتى لفيفا من الجزائريين يعتقدون أن هذه الأّمة ماتت كما حدث لكثير من مثيلاتها التي ربض الاحتلال على قلبها، وهذا الاعتقاد وجيه وله ما يبرّره لولا أن منّ الله عليها برجل عاهد ربّه على أن يسخّر حياته وعلمه لأجلها ، فاستُجيب لدعوة الأّمة ؛ وسخّر الله لها

جنودا من خيرة أبنائها وأعلمهم وأشدّهم حرصا وإخلاصا لها:

[وإنّ الذي يعلم تاريخ الجزائر الحديث يجزم بأن هذا الشعب شعبٌ حيٌّ لا يموت ، لقد كان هذا العبد يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر قريبا من الفناء، ليست له مدارس تعلّمه ، وليس له رجال يدافعون عنه ، ويموتون عليه، بل كان في اضطراب دائم مستمّر، ويا ليته كان في حالة هناء..]42

كان ابن باديس المعلّم ورائد الحركة العلمية الجزائرية ينطلق في مشروعه من أوليات وأساسيات تمثل المرجعية لحركته ، وهي تبدأ أساسًا من نظرةٍ إنسانيةٍ عاليةٍ لعلاقة الجزائريين بغيرهم من الأمم ، وهي علاقة المحبّة والمودّة وحسن المعاشرة، وهي أبجديات دين الله في ذلك، ومن أجلها أنشأ الّرجل ينشر المعرفة في ربوع وطنه الشاسع.

إنّ فلسفة العلامة ابن باديس التعليمية تقوم على تمكين الفرد أو الأّمة من معرفة موقعه وسبب وجوده ودوره في الحياة،هذا الدور الإنساني الذي عبّر عنه الله تعالى في محكم تنزيله بقوله:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾43وقد عبّر عن ذلك بقوله مخاطبا الأّمة الجزائرية :

[نحن قوم نريد الحياة لأنفسنا كما نحبّها لغيرنا، ونكره أن ندخل الضرر على أيٍّ كان غيرنا، كما لا ترضى أن يُدخل علينا الضرر من أيّ كان غيرنا، ونحترم لغتنا ومجدنا كما نحترم لغة ومجد غيرنا، ولأننا قوم نحبّ الخير فلا نحرم منه أحدٌ ، وما فتحنا هذه المدرسة إلاّ لخدمة العلم وأهله ، وتربية النشء وتثقيفه]44.

لا يمكن لأيّ حركة تعليمية أن تنجح و تثمر ما لم تكن قائمة على فلسفة تربويّة شاملة تحدّد المقاصد العامّة وتُعنى بتحديد أسس وقواعد بناء المناهج ضمن مقاربة معيّنة واحدة ملزمة للساعين إلى إنجاح هذه الحركة ، والحقيقة أن ابن باديس لم يكن لتغفل عنه هذه الحقيقة المهّمة ، خصوصا وأنه يضع معالم حركة تحريريّة شاملة ، وخصوصا وأنه لم يبعث هذه الحركة في أجواء وظروف اعتيادية وإنما بعثها في ظروف أقل ما يمكن وصفها به أنها استثنائية . بلسان صحافة هذه الأيّام . فالإمكانات والموارد تساوي الصفر أو تزيد عليه بقليل، وحال هذا الشعب البائس الذي استشرى الفساد في أوساطه . وإمعان الاحتلال في تثبيط أيّ

42البصائر / السنة:04/العدد:171/قسنطينة يوم الجمعة22جوان1939م.

43 سورة الحجرات/الآية: 13.

44 المصدر ذاته.

حركة بل شلّ أي هبّة من شأنها أن تفتح في طريق الجزائريين أملاً بمستقبل أفضل.

ومع ذلك فإن ابن باديس المتعلّم والمثّقف الذي تنقّل في عدد من البلاد العربية ووقف على منظوماتها التعليمية، فضلا عن إيمانه القويّ بقدسية ومشروعيّة رسالته التي كان يتسلّح بها كانت كلّها أسباب دافعة لأن يكون له فلسفة في التربية والتعليم. ترى ما هي هذه الفلسفة ؟وما هي الأسس التي قامت عليها؟

ولنبدأ أولا بتحديد مفهومه الخاص للمعرفة؛ فإذا كان غيره يُعنى بها كمجموعة من القيم والأحكام المجّردة الخالصة غير المرتبطة بالواقع، والتي لاغاية منها غير المعرفة ذاتها؛ فإنه كان ينظر إليها على أنها المنفذ إلى تغيير الواقع فهي أداة الفهم الصحيح وهي الطريق لتقويم الفهم والفعل والسلوك ، وهي التي تحمي وتعصم الفكر والإيمان من العقائد الضالّة المنحرفة التي جنت على الجزائريين وأضعفت سلطان الإيمان والدين في قلوب بعضهم، ومعنى ذلك كله أنّ المعرفة التي يجب نشرها وتقديمها للناس هي تلكم المعرفة التي تفتح العقول والبصائر وتصحّح الخاطئ من الاعتقادات والأفهام.

ولعلّ هذه النظرة هي الدافع والمحّرك لاهتمام الّرجل بالتعليم النابع من مبدأين : أّولهما موقف الإسلام من العلم والمعرفة فهما طريق الإنسانية الضالّة إلى الاهتداء، كما أنّهما طريق البشرية إلى السعادة الدائمة في الّدارين ، فالعلم والمعرفة أساس الدعوة إلى الله ، ولا يؤمن أحدنا إلاّ إذا علم وتأكّد بالتعلّم والتدبّر في ملكوت الله، وهذه القناعة تترّسخ في نفس الشيخ ابن باديس لتصبح المبدأ الثاني: وهو حاجة الجزائريين إلى المعارف التي من شأنها تغيير واقعهم وتحّررهم من الاحتلال الفرنسي ومن التّرهات والأباطيل التي ألحقت بالدين من طرف بعضٍ ممّن أساؤوا فهم الدين إن العلم الذي يحتاجه الجزائريون هو المعرفة التي تكشف لهم حقيقتهم وتاريخهم المجيد ، وتزيد في ارتباطهم بأّمتهم العربيّة وعقيدتهم الإسلاميّة.

إنّ المعرفة التي حرص الشيخ ابن باديس على توفيرها لأبناء أّمته الجزائرية هي المعرفة التي تحقّق الاهتداء إلى فهم وممارسة الدين الصحيح ، والالتزام الديني والاجتماعي كمرحلة أولى للتحرير العقلي الذي هو أساس التحرير السياسي من الاحتلال الفرنسي.

لقد أعاب البعض على التعليم الباديسي أنّه تعليم ديني فقط ، وهاجموا الشيخ ابن باديس باعتباره يحصر المعرفة في علوم العقائد والشريعة ، بحّجة أن الإنسان يحتاج إلى أكثر من هذه المعارف ليعيش ويرقى ويتطّور، وتناسى هؤلاء أن المرحلة التي بدأ فيها ابن باديس مشروعه الإصلاحي وحركته

التعليمية كانت مرحلة عصيبة من تاريخ الجزائر الحبيبة ، كان المستهدَف فيها هو الإسلام والعربية وهما رافدا الهويّة الجزائريّة ، وأن الأمّة كانت الوشائج التي تربطها بعقيدتها بدأت تتهلهل وتضعف بفعل الإجراءات العدائية المدروسة للاستعمار في محاربة الإسلام واللغة العربية.

وأمام هذا الظرف غير العادي الذي يستلزم العمل بفقه الأولويات وعندما وجد الشيخ الجزائريين كما عبّر عنه بقوله: [لقد كان هذا العبد يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر قريبا من الفناء، ليست له مدارس تعلّمه ، وليس له رجال يدافعون عنه ، ويموتون عليه، بل كان في اضطراب دائم مستمّر، ويا ليته كان في حالة هناء..] 45

فرضت الظروف التي كانت عليها الأمّة على العلامة ابن باديس أن يبدأ بتطبيبها لتشفى وتنهض أوّلا وتقوى على النهوض ؛ كمرحلة مبدئية ضرورية ، وهذا لا يعني أنه كان يعارض المعرفة الحديثة بمفهومها الشامل المتضمن إعداد الفرد وإكسابه المهارات ومساعدته على توظيف كفاءاته ليعيش ، بل إن الّرجل كان رغم حاجة الناس إلى ما يرسّخ عروبتهم وإسلامهم ويحصّنهم من حملات التبشير الجارفة المدّمرة ، يدعو إلى أن تتوّسع المعارف وتشمل المعارف المهنيّة ، لذا فإن الجمعية قد أنشأت مدارس للبنات والنساء وألحقت بها معامل و ورشات متواضعة للنسيج لاستقطاب المسلمات الجزائريات ، ولحمايتهن من الجمعيات الفرنسية التبشيرية التي كانت تجتهد لضم أكبر عدد منهن بغية تمسيحهن أو على الأقّل فرنسة تفكيرهن وعاداتهن.ولا أدلّ على ذلك من المدرسة التي أنشأتها الجمعية في قسنطينة وألحقت بها ورشة للنسيج.وينبغي هنا أن نتوقف قليلا للإشارة إلى أن حملات التبشير منذ بدايتها كانت تركّز على الأطفال والبنات ، ولعل النص التالي وهو المادة الخامسة من " التبشير بين الأهالي في القوانين الأسقفية " تقول : [إنّ الأطفال الأمل المرتقب لمهّمتنا عند الكفار ليحظوا أكثر بالعناية الأبويّة وستعمل على جلب الأولاد بواسطة وسائل بسيطة إلى المدارس أّولا، ثمّ إلى الكنائس بمنبّين لهم وبتحفّظ كبير بأنّنا نحبّهم ، أّما البنات الصغيرات فيتولّى رعايتهّن الخاصّة المبَشّرات أو معلّمات المدارس، وعلى القساوسة والأخوات أن يجعلوا كّل من يصادفون من اليتامى أو الذين تخلّى عنهم أولياء أمورهم على حسابنا إلى الجزائر، حيث نودعهم في المؤسسات الخيرية ، ويُطلُب من كل القساوسةوالأخوات أن ينخرطوا

---

45 البصائر / السنة:04/العدد:171/قسنطينة يوم الجمعة22جوان1939م.

في جمعية الدّعوة إلى النصرانية بين كفّار الجزائر46 وإدخال المؤمنين إلى خورنياتهم]47

كان ابن باديس وجمعية العلماء يدركان تماما بأن حملات التبشير تريد استقطاب الحلقات الأضعف في المجتمع الجزائري ليسهل تنصيرها ، ولم تكن هذه الحلقات غير النساء الأرامل والفقيرات اللائي لا معيل لهن والأطفال والبنات المشرّدين ، لذا فقد حرص على قطع الطريق أمام هذه الخطط التبشيرية البائسة باحتواء هذه الفئات ودعوة الموسرين والمحسنين إلى حمايتها من ذئاب التبشير بالإحسان إليها وتعليمها، ومما لاشكّ فيه أن مدارس الجمعية كانت مفتوحة لهذه الفئات قبل غيرها.

ويمكن للقارئ أن يقف على الدلالة والقيمة التربوية لهذا المشروع ، فالتعليم في نظر الشيخ ابن باديس ينبغي أن يتزاوج مع اكتساب مهنة أو حرفة يمكن للمتعلّم بها أن يتكسّب ويوفّر قوت يومه، ولا أحسب أن الذي يوفّر له التعليم هذه الميزة إلاّ أنّه سيتعلّق بهذا التعليم الذي حرّره من الجهل وحرّره من فاقة الحاجة إلى الغير، وهنا يمكننا القول بأن شعار ابن باديس في رسالته التعليمية كان:

- نتعلّم لنتحرّر.

وخلاصة مفهوم المعرفة وقيمتها في مشروع ابن باديس يمكن تلخيصه في هذا القول الموجز : [فتهذيب الّرجل لا يكون وتعليمه لا يكون إلاّ بالعلم والعمل بها وما ذلك إلاّ ببثها : بالمحاضرات في النوادي بالدروس العامة في المساجد وبالخطب الجمعية على المنابر. وإذا كانت هذه طريقنا للتعليم العام فعلينا أن نجعلها في أّول ما نهتّم به من شؤون إصلاحنا إذ لو كانت هي كما يجب أن تكون وقامت بواجباتها كما يجب أن تقوم لكنّا على حال غير ما نحن عليه اليوم.]48

بفضل ابن باديس وبفضل هذا المفهوم العملي المناسب للظرف والمتناسب مع الواقع تحّولت الجزائر إلى ورشة تعليمية كبيرة ، في الحواضر الكبرى وفي القرى والبوادي والمداشر والأرياف، في الجبال والوهاد والصحاري ، وكانت الألسن كلّها تلهج بذكر الله والدعوات لهذا المحّرربالتوفيق وبالمباركة .

كان العلامة ابن باديس ـ رحمه الله ـ من أشد الواثقين بأن الأّمة على ما هي عليه من الضعف

46 الكفّار في هذه الفقرة وفي نظر كل تصريحات الكنيسة ومنشوراتها هم (المسلمون) لأنّ المؤمنين هم النصارى فقط!؟ وهذا ما يوعز إلينا بفكرة الحرب الصليبية ، فغزو الجزائر لا يعدو كونه امتدادا تاريخيا وفعليا لهذه الحر ب العقدية الفاشلة بإذن الرّحمان.

47 الحركة التبشيرية في الجزائر/خديجة بقطاش /الصفحة:170.

48 ابن باديس وعروبة الجزائر /مبارك الميلي/الصفحة135.

والخور والتخلّف مطالبة بأن تسعى جهدها لتنجح في هذا المشروع الكبير ؛ المشروع الذي سيحيي الجزائريين وسيبعث في حياتهم التي تجّمدت عبر هذه العقود من الزمن نوعا من الحياة والنشاط ؛ سيفضي بهم إلى التحّرر من الاحتلال الذي ما كان يشكّ في إمكانية اندحاره وإخراجه غير فئة محدودة، وكان هذا المشروع الذي أراده ابن باديس مشروعا يتسم بالشمولية والتكامل وتحديد الغايات والأهداف فلم يكن مغامرةً أو تجربةً ، وإنما كان مشروعًا مبنيًّا على قواعدَ ومرتكزاتٍ واضحةٍ ومحّددةٍ بعيدةٍ عن الارتجال.

ورحم الله الشّيخ البشير الإبراهيمي الذي لخّص لنا فلسفة جمعية العلماء في أدوات التحّرر الفكري والسياسي أروع وأتمّ تلخيص حين قال: [مبدأ الجمعيّة يرمي إلى غاية جليلة ، فالمبدأ هو العلم، ،والغاية هي تحرير الشعب الجزائري، والتحرير في نظرنا قسمان: تحرير العقول والأرواح وتحرير الأبدان والأوطان ، والأّولُ أصل الثاني ، فإذا لم تتحّرر العقول والأرواح من الأوهام في الدين والدّنيا ، كان تحرير الأبدان من العبودية والأوطان من الاحتلال متعذّرا أو متعسًّرا]49

وما من شكّ في أن فلسفة الشيخ العلامة ابن باديس ما كانت لِتُوصَف إلاّ بالقصور إن هي قامت أساسًا على المعرفة المجّردة الخاليةِ من مراعاة القيم السلوكيةفي المعاملات والأخلاق،ذلك أن الإنسان معرفة وسلوك ؛ عقلٌ وجسم ، ولا يمكن للحياة أن تستقيم أو تستقّر ما لم يكن هناك هذا التوافق والانسجام والتناغم ، ولا أمل في أن تستقيم المعاملات والسلوكات والأفعال ما لم تستقم الأرواح والنفوس وما لم تصحّ العقول ؛ وتتحّرر ممّا يقيّد تفكيرها السليم وتأّملها الصائب.وأجزم واثقا كما يجزم من اطّلعوا على سيرة وفكر المُحّرر وتناولوهما بالتحليل والدراسة الفاحصة المجهرية في أنّ التربية والتهذيب كانت من أولويات عمله في مجال التعليم والإصلاح ، كيف لا وهو ينطلق في هذا من كتاب الله عزّ و جلّ ومن سنة نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم الداعيتين إلى ترويض النفوس على الخير والنبل و الكمال الإنساني.

وهذا الجانب المشرق من حياته كان سببا في أن يحظى بإعجاب وتقدير الملايين من الناس الذين قدّروا إنجازه الرائع العظيم في مسار الإصلاح والتهذيب حقّ قدرها ، وما ذلك إلاّ لأنّ [الشيخ عبد الحميد بن باديس بلا شكّ (مربّ عظيم) استطاع أن يربّي أجيالا من الجزائريين ،

49آثار الشيخ البشير الإبراهيمي / الجزء:04/ الصفحة:343/344.

كانت أساسا لنهضة الجزائر العربية الإسلامية الحديثة، فقد أدرك منذ البداية أنّه ما من أمّة يمكن أن تنهض حقيقة إلاّ عن طريق التربية ، وأنّ هذه التربية لا تكون مجدية إلاّ على أساس من تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق]50

تشكّلت رؤية الشيخ للأخلاق ودورها وأثرها البالغ في سعادة الأفراد والأمم من الإسلام الذي قامت رسالته على الأخلاق الرفيعة ،ومن رسالة نبيّه الذي جاء في مهّمة هي أعظم ما يمكن للبشر أن يضطلعوا به وهي إتمام الأخلاق، كما تجذّرت هذه الفكرة من التربية الدينية المحافظة التي تلقاها الشيخ على يد والده وفي أسرته التي كانت مثالا للأسرة المسلمة المتمّسكة بفضائل الإسلام وعاداته، كما نمّى هذه الأخلاق بمطالعاته ، وما أخذه في مجالس العلم عن الشيوخ الأجلاّء والعلماء النوابغ، فباتت هذه الفكرة مبدأه الشخصي وديدنه في التفكير والمعاملة، وأصبحت فكرته وأساس منهجه في التعليم والتربية.

كان الشيخ ابن باديس لا يفتأ يقدّم الدروس الجليلة والمواعظ البالغة في المسجد والشارع والمدرسة وعلى صفحات الشهاب وغيرها من الجرائد يوجّه الجزائريين إلى الفضائل التي جاء بها دينهم وينهاهم عّما جاء به المستعمرون من العادات الفاسدة المخزية التي لا تتوافق مع عقيدتهم.

ويؤّكد الشيخ على التربية ويعطيها الجانب الأهم من اهتمامه وتفكيره وجهده ، لإيمانه بأن الأّمة لا تكون سعيدةً ؛ ولا يتأتّى لها أن ترقى وتتطّور إلاّ إذا تحّصن أفرادُها بسياجٍ من الفضائل والمزايا الإنسانية المتطلّعة إلى الكمال في السلوك والمعاملة ، وكان الّرجل يرى . بمرارةٍ كبيرة . كيف أمست أخلاق إخوانه في ظل هذا الاحتلالِ الغاشمِ الذي أفسد الزرع والنسل . ويبدو أن هذا الاستعمار لن يرضى ولن يرضى إلاّ إذا ألحق فساده بالأفعال والعقول.

وكان يعيش ويشاهد كيف أن الناس نتيجةً لضعفِ الوازعِ الدينِّي وانتشارِ الجهلِ وسيطرةِ عاداتِ الأوربيين المعّمرين الذين كانوا من أسوأ العينات التي انتقتها فرنسا لتشكّل بها مشروع مجتمعها الجديد و الفقر والحاجة اضطّر. إلى التفريط في كثير من قيمها وعاداتها المتجذّرة في النفوس والنابعة من نقاء وصفاء الإسلام .

كان ينظر بمرارة إلى الفساد وهو يستشري كالملح في الماء، وبعد إمعان التفكير في هذا الواقع المترّدي ، كشفت له حجب الحقيقة عن أنه لا خلاص لهذه الأّمة المستضعفة إلاّ بالتربية والتهذيب

50 ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير /الصفحة:97.

وإصلاح أخلاقها ، فدأب . رحمه الله . يربّي النساء والرجال ويغرس في نفوس النشء بذار الفضيلة والخلق السامي في إيمان و لم يُغفل الدّرس أو الخطبة او المقالة وكان مربّيًا فاضلاً في المدرسة وعلى المنبر وفي الجريدة وبين الناس وهو في الشارع يسوس الجميع ويأخذ معهم بنوع من الأخلاق التي شدّت إليه القلوب قبل الأبصار وفتح الله له فتحا مبينا في هذه الرسالة ، وهو يتّمم رسالة من أورثه العلم النافع والمجد الأثيل.

ما كان ابن باديس يعطي التربيّة هذه الأهميّة الكبيرة لو لأنه لم يستبصر حقيقةَ دورِ الأخلاقِ في تحسيسِ الإنسانِ الجزائريِّ بكرامتِه المهدورةِ وإنسانيتِه المخدوشَة بفعل التصرفات التعسفية للسلطات الاستعمارية ، وما كان له أن يبعث حركة التحّرر من الرذائل والدنايا في قلب هذه الأّمة لو لم يع أثرها الفظيع في تخريب النفوس وتدميرها.

إن الأخلاق والمعاملات القويمة لا يمكن أن تترّسخ في النفوس إلا عندما تأتي نتيجة ووفقا للتعليم الديني الصحيح السليم الذي يقوم على اتباع مصادر التشريع ومراعاة مقتضى الحال من زمان ومكان ، ولا يمكن لهذه الأخلاق إلا أن تكون الصورة الظاهرة للحقيقة الباطنة وهي التديّن والاعتقاد الصحيحان.



فلا معنى في نظره للتعليم والإسلام إذا لم يتجّسدا في أخلاق الناس وتصرفاتهم في الشارع والسوق والمعمل والمدرسة ، وهي فكرة قد تبدو في ظاهرها بسيطة لاتخفى على أحد إلاّ أنها في ميزان الواقع ، وعلى مستوى إصلاح الشعوب والأمم تعني الكثير. فهاهو يخاطب الأّمة بأسلوبه المعهود:

[أيها الشعب الجزائري الكريم تالله لن تكون مسلًما إلاّ إذا حافظت على الإسلام، ولت تحافظ عليه إلاّ إذا فقهته ، ولن تفقهه إلاّ إذا كان فيك من يفقّهك فيه، ولهذا فرض الله على كّل شعب إسلاميٍّ أن تنفر منه طائفة لتتفقّه في الّدين ، وترجع إلى قومها بالإنذار، فبذلك يرجى لهم الّرجوع إلى الله ، وما هو إلا الرجوع من الضلال إلى الهدى ، ومن الباطل إلى الحق ، ومن الاعوجاج إلى الاستقامة.

أّما أبناؤك الشبان حملة القرآن فقد هبّوا هبّةَ رجل واحد لطلب العلم والتفقّه في الّدين ، يحملون الإيمان في قلوبهم ، والقرآن العظيم في صدورهم ، والروح الجزائرية المسلمة في لحومهم ودمائهم، لا يقصدون إلاّ أن يتعلّموا فيعلموا ويتفقّهوا فيفقهوا ولا يرجون في ذلك إلاّ رضا الله ونفع عباده]

وجد الشيخ ابن باديس أن التهذيب والتربية الخلقية لهذا الشعب لايمكن أن يتمّا إلاّ بالتعليم الديني ، لذا كان اهتمامه بالدروس التي كان يقدمها شخصيا في المساجد، والمحاضرات والمقالات التي كان يدأب على نشرها في جرائد الجمعية وفي غيرها من الجرائد، وقد حرص كلّ الحرص على أن نقل هذه الفكرة أو النظرية إلى غيره من شيوخ جمعية العلماء المسلمين.

إذا أمكن لنا أن نختار لهذا الّرجل صفة من الصفات التي تصّور لنا نشاطه التربوي فلا أظن أننا نجد أبلغ من صفة المهذّب لما تحمله من دلالات على انشغاله بتقويم النفوس وإصلاح ما اعتراها من العوج والانحراف، وتصليح ما أصابها من الشذوذ الفكري والسلوكي اللذين كانا ثمرةً مرّةً من ثمار الاحتلال التي كانت كالزقّوم.

حرص المهذّب على أن يكشف للفرد الجزائري حقيقتهالتي أنسته الأيّام معناها، بقدر حرصه على إظهار حقيقة الرسالة التي يجب أن يقوم بها هذا الفرد، فكان في الغالب حريصا على مخاطبة الجزائري . بصفة الفرد . لاعتقاده بأن إصلاح حال الأمة وتهذيب النفوس لا يكون إلاّ بإصلاح الفرد ومخاطبته والتغلغل إلى وجدانه ليسهل التأثير فيه وتقويم ما اعوجّ من سلوكه وانحرف من تفكيره، وكان العلاّمة كالبستاني النشيط المقتدر المحترف يعتني بغرسه اعتناء منقطع النظير يسقي الشجيرة المتطلّعة إلى مثيلاتها بروح المحبّة والعناية ويبعد عنها النباتات المتطفّلة؛ كيلا تنقص من معينها أو تفسد حركة نمّوها ، دون أن يغفل عن الشجرة الكبيرة المتطلّعة إليه بعيون تقودها اللهفة ويسوقها العجز ، فيرعاها بدورها ويقلّم ويسقي ويّربت على جذعها تربيت الحاني المحبّ، ولا يترك بستانه إلاّ وهو الحالم المتطلّع إلى الغد الذي سيرى فيه أشجاره تجود بثمارها اليانعة الشهيةّ.51

إنّه لا يجد بدّا من أن يخاطب هذا الفرد مقدما صفة الإسلام على جنسيّته ووطنيّته ،ليبيّن له ما له وما عليه ، ليكشف له واجبه ورسالته الإنسانية ويحذّره مما يخافه عليه من أولئك الذين قد يكون ظاهرهم النفع وباطنهم الضرر: [احذّر كُلَّ (متعيلم)يُزهدك في علم من العلوم ، فإن العلوم كلّها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة ، وخدم علماء الإسلام بالتحسين والاستنباط ما عرف في عهد مدنيتهم الشرقيّة والغربيّة حتى أعترف بأستاذيّتهم علماء أوربا اليوم. واحذر كلّ (متريبط) يريد أن يقف بينك وبين ربّك ويسيطر على عقلك وقلبك وجسمك ومالك بقّوة ..] 52

---

51 ***

52 الشهاب/ العدد49/ أوت:1926.

وفي ذات المقال وضمن فلسفة التربية السلوكية التي لا يمكن إقصاء أي طرف منها يحذر من الربا والإسراف والمحرمات التي انتشرت في مجتمع الجزائريين وكان الاستعمار يغذّيها مع اليهود الذين كانوا البلاء الأكبر والمصيبة العظمى !!

إنّ رسالة الّرجل أن يجعل الجزائري يعمل بهذه التوجيهات:[حَافِظْ على حياتك ، ولا حياة لك إلاّ بحياة قومك ووطنك ودينك ، ولغتك وجميل عاداتك ، وإذا أردت الحياة لهذا كلّه ، فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل.

كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمّدنك و رقيّك. كن صادقا في معاملاتك بقولك وفعلك.

احذر من الخيانة : الخيانة المادية في النفوس والأعراض والأموال ، والخيانة الأدبية ببيع الذّمة والشرف والضمير ، واحذر من التوّحش فإن المتوّحش في عصر المدنية محكوم عليه طبيعيا بالتناقض ثم الفناء والاضمحلال والاندثار، كما فنيت جميع الأمم المتباعدة عن التمدّن والرقي.

احذر من التعصّب الجنسي الممقوت فإنه أكبر علامة من علامات الهمجية والانحطاط.

كن أخًا إنسانيًا لكل جنس من أجناس البشر، وخصوصًا ابن جلدتك المتجنِّس بجنسيةٍ أخرى ، فهو أخوك في الّدم الأصلي، على كلّ حال: كُن محسِنًا لكلّ أحد من كل جنسٍ ودينٍ فدينُك الشريف يأمرك بالإحسان..]53

والخلاصة أن التربيّة في فكر وفلسفة ابن باديس هي الشقّ الثاني للتعليم ، ولا يمكن لأي حركة تعليمية أن تنجح وأن تثمر وأن يكون لها معنى دون أن تقوم على التربيّة التي تسعى إلى الرقي بالإنسان إلى مدارج الكمال الإنساني ، ومتى وصل إلى هذه المراتب فإنه لاشكّ سيحقّق لنفسه السعادة ، وسيكون أداة فاعلة لتحقيق السعادة الإنسانية وهي غاية الغايات ومقصد الرسالات السماوية ومنها الإسلام الذي كانت غايته السعادة الإنسانية في ظل التوحيد.

ابن باديس ونظرته إلى المناهج التربوية: إن أيّ منظومة تعليمية أو تربوية لا شكّ أنها تعتبر المناهج جزء مهمًّا وعنصرًا أساسيًا في عمليات التعلّم والتكوين ، ذلك أن هذه المناهج تشمل أكثر من الدلالة على البرامج التي تمثل القيم المعرفية والمعلوماتية المراد تبليغها لفئات المتعلّمين ، وبغض النظر عن طبيعة هذه المناهج وحقيقتها والتمييز بينها وبين البرامج ، فإنَّ الشيخ ابن باديس كان ينظر إلى موضوع المناهج التربوية التعليمية نظرة

53 من المقال السابق /المرجع ذاته.

خاصّة باعتبارها الأداة ، فهي اللقاح الذي سيعيد الحياة إلى جسم هذه الأمّة وكيانها المتهالك الحياة ، وهي ما سيعصم أفرادها من الانسلاخ العقدي والفكري الذي يحيق بهم.

لذا فإنّه اهتّم بالبرامج واعتبرها أساس نجاح التعليم ونجاح مشروعه في تحرير الأمّة العقلي والسياسي، هذا التحرير الذي يستدعي اختيار المواد التعليمية المناسبة والضرورية التي تغذي الأرواح والعقول وتسمو بالوجدان إلى مراتب الصفوة.

وكان . رحمه الله . قد دعا إلى عقد مؤتمر للمعلّمين والمعنيين بالشأن التربوي لدراسة المناهج التعليمي بنادي الترقّي وحدّد الموضوعات التي سيتناولها هذا المؤتمر في محاولة جريئة منه لصياغة الخطوط العريضة والأسس التي سيقوم عليها بناء مناهج حديثة للتعليم تتناسب وبُعد وأهمية هذا المشروع وأبلغ عن هذا المؤتمر الذي سيضم المعلمين الأحرار بالبلاغ الآتي:

[سينعقد مؤتمر رجال التعليم العربي الحّر تحت إشراف جمعية العلماء بنادي الترقّي بالجزائر يومي الأربعاء والخميس الثاني والعشرين والثالث والعشرين من شهر سبتمبر الجاري لتبادل الآراء في ما يهّم التعليم العربي الحّر ومدارسه ومساجده ونظمه وأساليبه ، والغاية المنشودة من ذلك هي التوصّل إلى توحيد مناهج التعليم العربي فعلى إخواننا الأساتذة القائمين بهذا النوع من التعليم أن يحرصوا كّل الحرص على مشاهدة هذا المؤتمر، والواجب أن يعدّوا خلاصة آرائهم ضمن تقارير تُقدَّمُ للمؤتمر، وها هي المسائل التي نرجو منهم أن يتقدّموا إلى المؤتمر بآرائهم فيها:

1. وسائل توحيد التعليم.
2. أسلوب التعليم.
3. أسلوب تربية الناشئة.
4. خلاصة تجاربهم في التربية والتعليم.
5. الكُتب ، وهل الأحسن اختيار كتب مصرية ، أو تأليف كتب تتفق مع الروح الجزائرية.
6. رأيهم في تعليم البنت المسلمة ووسائل تحقيقه.
7. التعليم المسجدي ووسائل تنظيمه وترقيّته
8. رأيهم في الوسيلة التي تعيد بها المرأة المسلمة سيرة سلفها من تلقّ] العلم.
9. تقارير مفصّلة عن درجة إقبال الأمّة على التعليم بالمقارنة بالفترة السابقة (كّل في جهته).

والمجلس الإداري لجمعية العلماء يلّح كل الإلحاح على الأساتذة القائمين بمهّمة التعليم الحرِّ في أنحاء القطر الجزائري ألاّ يتأخّروا عن الحضور في هذا المؤتمر العلمي النافع الذي ستكون روعته وفوائده على مقدار جهودهم ومباحثهم، وستكتب دعوات خاصّة لكل من نعرف اسمه وعنوانه

بالضبط ، ومن غاب عنه فليعتبر هذه الكلمة دعوة خاصّة ، ولهم الشكر.]54

وما نقرأه في هذا البلاغ مجموعة من الأحكام والاعتبارات الهامة التي تكشف لنا عن مهارة واطلاع وعبقرية في الاستطلاع.

فالّرجل . لما للمناهج من كبير الأهمية في التعليم والتربية ولما لهذين الأخيرين من أهمية في معركة التحرير. يريد أن تتّم صياغة المناهج صياغة جماعية باعتبارها تمّس الجميع ، ويريد أن يشرك رجال الميدان وأن يستفيد من تنوع وتباين آرائهم في إثراء الموضوع والنقاش للوصول إلى بناء استراتيجيةٍ دقيقة مستبصرةٍ للتعلّم وآلياته في الجزائر، كما أنه يدرك بأن رجال القطاع أعلم بما يمكن أن يقدّموه في مجال البرمجة والاقتراح55.

كما أنّه صاحب مهارة و باع معتبرين في مجال التربية تكشفهما لمحاور المدرجة التي سيتناولها المؤتمرون،وأهمّها:

. تقويم سير حركة التعليم.

. تقويم طرق التعلّم.

. بناء البرامج التعليمية.ومراعاة الظروف الزمانية والمكانية في بنائها بإدراج محور اختيارِ كتبٍ مصريةٍ أو بناءِ برامَج جزائريةِ الّروح، وهذا يكشف لنا بأن البرامج ينبغي أن تكون وفق رأي ابن باديس أو رأي من دعا إلى ذلك مراعية لخصوصيات وتاريخ وهويّة الأّمة الجزائرية ، وهذا يكشف لمن لهم صلة بالتربية والتعليم أن هذا العلامة منظّر وخبير في شؤون التعليم ، ولا أدلّ على ذلك من تحديده للفرق بين المناهج والبرامج من خلال تجزئة عناصر المنهاج (كعناصر مقترحة للنقاش)!!

إن العنصر التاسع يظهر للقارئ رغبة ابن باديس في أن يطّلع ويسمع من فرسان الميدان مدى قابلية التعلّم والإقبال على التعليم في وسط هذه الأّمة ؛ لأنّ ذلك في نظره سيكون المؤشر على مدى نجاحه في استمالة وحث وبث روح التعلّم في أوساط الجزائريين؛ وهو الأمر الذي أراه من الأهميّة بمكان بحيث سينقل هؤلاء المعلمين القادمين من

---

54 ابن باديس وعروبة الجزائر /محمد الميلي/الصفحة: 49.

55 حبّذا لو أن وزارة التربية عندنا عندما طرحت مشروع تقييم الإصلاح التربوي اعتمدت منهج وطريقة الشيخ ابن باديس وذلك بتنظيم مؤتمرات جهوية تتلاقح فيها الآراء وتتنوّع فيها الرؤى بدل اعتماد تقارير إدارية مكتبيّة معزولة عن صميم التعليم ليتم سماع صوت رجال الميدان والعمل بمقترحاتهم لأنّها نابعة عن نظرة عميقة وممارسة ميدانية للفعل التربوي والتعليمي، إلاّ أن ما لجأت إليه الوزارة هو إسناد الأمر إلى مسيّرين وإداريين أفضلهم اطّلاعًا وإحاطة بالتربية لا يعي الفرق بين البرنامج والمنهاج ،وهذه القضيّة واحدة من دلالات عدم توظيف موروثنا وثقافتنا.

ربوع الجزائر المختلفة صورة حيّة وصادقة لسير مشروع التحّرر الباديسي العظيم.

كان الشيخ يمتلك . ولا شك . نظرة خاصّة لبناء المناهج أو البرامج التعليمية ، غير أنه لم يلزم بها غيره ، وإنما أراد أن تكون هذه المناهج خلاصة لآراء الجميع وثمرة لتضافر جهود أهل الميدان ، غير أن هذه النظرة ما كانت تختلف كثيرا عمّا توصل إليه المؤتمرون.

تمثّل اللغة العربيّة باعتبارها أداة للتحصيل واكتساب المعارف والعلوم عمود هذا المنهاج وأساسه، وتعليمها هو وسيلة لتحقيق غاية تمكين الجزائري من التعبير والكشف عن آرائه ومشاعره بلغة سليمة تتدّرج مع الأيام من لغة متوسطة إلى لغة راقيّة إبداعية ، وعلى هذا التعليم تمكين الفرد من المشافهة أو التعبير بالكتابة تعبيرا سليما مستساغا.ولا يكون ذلك إلاّ بتعليم علوم العربية ، وما يتصل منها بسلامة التراكيب كالنحو و الصرف أو بجمال ورونق العبارة كعلوم البلاغة العربية،(علم المعاني/علم البيان/علم البديع) وهذا الرأي هو رأي أغلب النقّاد والأدباء والبلاغيين يقول أبو هلال العسكري : (فإن صاحب العربية إذا أخل بطلب هذه العلوم وفرط في التماسها، فاتته فضيلتها، وعلقت به رذيلة فوتها، وعفى على جميع محاسنه، وعمى سائر فضائله، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء، ولفظ حسنٍ وآخر قبيح وشعر نادر وآخر بارد بان جهله، وظهر نقصُه، وإذا أراد أن ينشىء رسالة، أو يضع قصيدة ،وقد فاتته هذه العلوم: مزج الصفَو بالكدرِ وخلطَ الغَرر بالعرر، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل وكذلك إذا أراد تصنيف كلام منثور أو تأليف شعر منظوم وتخطى هذه ساء اختياره، وقبحت آثاره، فأخذ الرديء المردود، وترك الجيد المقبول، فدل على قصورِ فهمِه وتأخُّرِ معرفته، مع ما في هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة إلى فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله، اللذين منهما يستمد الكاتب: شريف المعاني ويستعير فصيح الألفاظ بل منهما تُستفادُ سائر العلومِ وتُقتبسُ نفائسُ الفضائل)56.

فضلا على تعليم الآداب العربيّة لما تتركه من أثر معرفي وأدبي وثقافي وسلوكي على المتعلّم ، وتعليم الإنشاء ، والقراءة السليمة ، وهذا الجانب الأدبي واللغوي ينبغي أن يسير طبعا بالتوازي مع التعليم الديني متمثلا في العقائد التي يجب أن تؤخذ مع أدلّتها من القرآن الكريم ، والنأي بالمتعلم عن

56 موسوعة البلاغة العربية الميسّرة/المؤلف/المجلس الأعلى للغة العربية 2008. والحديث عن ضرورة تعلم علوم البلاغة طويل لارتباطها بتحسين ملكة التعبير وتساعد في تفسير كلام الله تعالى واستبيان دلالاته ومراميه.

سلوك طرائق علماء الكلام لأنّها تضييع وتعطيل وقلّة تحصيل. وبالإضافة إلى العقائد يتلقّى الطالب الفقه الذي يجب أن يقتصر على المسائل وأدلّتها ، وألا يجعله يغرق في التشّعبات، ما لم يكن داع لذلك. وكذلك أصول الفقه ، وعلم التفسير الذي هو من الأهمّية بمكان ليقف المتعلّم على معاني آيه57، ويتضمن المنهاج الباديسي أساسا من أهم أسس المنهاج وهو التربية الخلقيّة التي يستند الأستاذ في تعليمها على كتاب الله وسنة نبيه الكريم ﷺ بالإضافة إلى مآثر الصالحين والسف.

كان ابن باديس . رحمه الله تعالى من أشد الحريصين والدعاة إلى وجوب تعلّم وتعليم التاريخ، وليس غريبا أن نجده يجعل تعليم التاريخ رافدا من روافد منهجه التعليمي ، وقد كان دوما يؤكّد على ضرورة أن يتعلم الجزائريون تاريخهم وتاريخ غيرهم من الشعوب ليستفيدوا منه.وكان يقول بأن النسبة إلى الوطن توجب العلم بتاريخه. وهذا ما يظهر في تعليقه على كتاب الأستاذ المدني عن تاريخ الجزائر:

[أقول بكلمة واحدة: إنّه يتحتّم على كلّ مسلم جزائري أن يقرأ هذا الكتاب، وإنّك إذا ختمته . أيّها المسلم الجزائري . لابدّ أن تخرج منه تحبّ منه من يجب أن تحبّ ..وتبغض من يجب أن تبغضَ.. والحبّ والبغض سلاحان لازمان في الحياة ، ولا بقاء لأمّة بدونهما، إذا استعملتهما في محلّهما]58

إن تركيز الشيخ وإلحاحه المتكرر على تعليم التاريخ سرّه ما لاحظه الّرجل من جهل مطبق لدى الناس من أبناء الأمة الجزائرية بتاريخهم الحافل بالأمجاد ، ولعّل هذا ما جعله يقدّم لكتاب الأستاذ أحمد توفيق المدني عن تاريخ الجزائر بقوله:

[هذا هو نفس ما وقع بالجزائر من تشويه تاريخها ، وتصويرها في جميع عصورها . خصوصا في العصر العثماني . بأقبح الصور في الكتب التي تدرس في المكاتب الفرنسية ، وتدّرس . يا للبليّة !! يا للحسرة! . لأبنائها... غير أنّ الجزائر ليس فيها جمعيّة تحتّج على هذا التشويه الباطل القبيح ، بل من أبنائها المثقفين . بالإفرنسي طبعا . من ينكر تاريخها جملة ويزعم أن لا شخصيّة لها.]59

إن المنهاج الباديسي يقوم على ثلاثية تتكامل وتجتمع لتشكّل معالم الهويّة الجزائرية وهي(اللغة العربية+الإسلام+تاريخ الجزائر)، ولم يهمل الشيخ ابن باديس العلم المادية أو التجريبيّة التي كانت

57 يرى ابن باديس أن تفسير الجلالين مناسب للمتعلّم على أن يستفيض الأستاذ في شرح ما غمض على المتعلم أو استعسر فهمه.

58 الشهاب الجزء:07/ المجلد:13/ الصفحة:319/سبتمبر1937م نقلا عن شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة1830م./ للمفكّر : مولود قاسم نايت بلقاسم.

59 المرجع السابق.

الحاجة ماسّة إليها كالحساب والهندسة ، غير أن تعليمها لم يكن أمرا ميسورا وذلك لقلّة الكوادر والمعلّمين المؤهلين ، فكان أغلب الذين درسوا هذه العلوم من خرّيجي المدارس الفرنسيـّة ، وجدير بالذكر أن التعليم الباديسي لم يكن يختلف عن التعليم في الأزهر الشريف أو في الزيتونة ؛ حيث كان تعليما لغويا دينيا بالدّرجة الأولى. وكانت هذه الميزة نتيجة ما عاشته الأمّة العربيـّة من مخلّفات عصر الانحطاط أو الضعف، وآثار الاستعمار الذي عصف بشعوبها.

تقوم المرأة في أيّ مجتمع متحضّر بلغ شأوا في المد نية بدور عظيم في استقرار ورقّي هذا المجتمع ، ولو نظرنا في واقع الأمم الراقية الناجحة في عصرنا وفي ما سلف من العصور لألفينا المرأة تقف خلف هذا النجاح فهي الحاضنة لقادته وكبرائه وبناة أمجاده ، كما أنّها صانعة رجاله وحماته، ولم يكن يخفى على ابن باديس وهو رجل التربية والاجتماع المتميـّز ما للمرأة الجزائري من أدوار إنْ في تردّي المجتمع أو في رقيـّه ومضيه في درب الأمم المتألّقة المتحضّرة ، وكان يعلم تمام العلم أن سبب الخيبات التي أصيبت بها كثير من المجتمعات ومنها المجتمع الجزائري إنّما سببها المرأة التي أُهملت فكان أن انعكس هذا الإهمال على مصير وواقع الأمّة جمعاء.

أفرد الّرجل المصلح حامل لواء التحرير للمرأة المكانة المناسبة التي تليق بعظيم دورها في التنشئة والتربية وإعداد الجيل ، ومنحها من اهتمامه وفكره ما يـُفهم منه أن نجاح الأمم متعلّق بنوع التربية والتعليم والمعاملة التي تحظى بها النساء.

فكان شديد التركيز على ضرورة تعليم الفتيات وتهذيبهن وفق تعاليم الدين الإسلامي و مبادئه السامية دون أن ينسى الاهتمام بالنساء والأمهات ،فكان لهن حضورهن المميـّز في مجالسه الدعوية ودروسه ومحاضرته ، فضلا على أنهن كّن يشكّلن موضوعا من المواضيع التي يتناولها في خطبه ومقالاته ومداخلاته.

أمر ابن باديس بأن يـُعاد للمرأة الجزائرية كرامتها وهيبتها ، وحثّ على أن تتبّوأ في المجتمع الجزائري المسلم الموقع الذي يتيح لها القيام بدورها ومهاّمها في التربية والتنشئة والتهذيب ، وكان دوما يعتبر تهذيب المرأة بابا للخلاص إلى تهذيب المجتمع ، وحرص في دروسه على معاملة النساء بما حدّده الإسلام في مصادر التشريع، وكانت دعواته إلى الإحسان إليهن والتخفيف من معاناتهن لا تتوقّف ولا تنتهي.

يقول د:محمد بهي الدين سالم : [كان للمرأة الجزائرية حظّ كبير في تفكير وآراء ابن باديس التربوية ، حيث ساعد على فتح مدرسة خاصّة

تعلّم الفتيات (تعليمًا دينيًّا صحيحًا وما تصبو إليه من اقتران ذلك التعليم بالحشمة والفضيلة والعفّة والصيانة ، ونفض تلك الأسمال من العرف الذي يوجب على الفتاة حرمانها من المعرفة والثقافة العلمية الدينية الصحيحة ، ومن كلّ ما يؤهلها لأن تكون فتاة جديرة بالحياة]60

ولم يكن للمرأة هذا الدورالمهّم في سلم اهتمامات ابن باديس وفكره ليظل محصورا في الجانب النظري فحسب ، ولكنه تجاوزه إلى الجانب العملي، فكانت المدارس التي أنشأها تخصص حيّزا زمانيا ومكانيا لتعليم المرأة وخصوصا الفتيات ؛ لما في تهذيبهن في هذه السن المتقدّمة من بالغ الأثر في نشأتهن نشأة قويمة تنعكس على دورهن كزوجات وأمهات يُنتظر منهن أن يقمن بإعداد الفرد الجزائري، المواطن الحّر الذي يرفض الاحتلال والمذلة ويرنو إلى المستقبل المشرق الواعد.

وقد وجدناه عندما التفت إلى الجالية الجزائرية في المهجر ، التي اضطرتها الظروف الاقتصادية والسياسية إلى الاغتراب في بلاد المحتّل ، وكلّف نخبة من أبناء جمعية العلماء على رأسهم العالم المجاهد الشيخ الفضيل الورتلاني . رحمه الله . يذكّر هذا الوفد ويلحّ على الاهتمام بالفتيات المسلمات ويدعو بل ويأمر باستقطاب أكبر عدد منهن في نوادي التهذيب التي أقامتها الجمعية في فرنسا لتعليم البنات وتحصينهن بالتربية الإسلامية كيلا يقعن فرائس لعادات وطباع المجتمع الفرنسي، فينشأن عندئذ جزائريات الباطن فرنسيات العادة والطبع.

كان رحمه الله حريصًا في اهتمامه بالتعليم على المرأة ، وحريصًا بالذات على أن تتلقى النصيب الذي يؤهلها لتكون أمًّا صالحةً مسلمةً تنشئ صغارها على الفضائل وتعاليم الدين الحنيف وتغرس فيهم حبّ الوطن والإخلاص له.

[فابن باديس يهتم بنوع الثقافة التي ينبغي أن تتثقّف بها المرأة الجزائرية حتى لا تتحوّل إلى حليفٍ للاستعمار وحتى تظّل. مثّقفةً أو أميّةً . مصدرَ تلك الروح الخفيّةِ التي تتكون منها الشخصيةُ الوطنيةُ]

لم تخفت يوما نبرة العلامة المحّرر في الدعوة إلى تعليم المرأة الجزائرية ، ولم يغضّ الطرف حينًا من الدهر على حث الجزائريين الذين كانت المرأة في مجتمعهم لا تساوي شيئًا يُذكر على أن يفتحوا لها أبواب التعلّم الصحيح خوفًا عليها من الانغلاق الفكري الذي يجعلها تقع فريسة للتأثيرات غير المحمودة ، وخوفًا على الجيل الذي تنتجه إنْ هي لم تتعلّم ولم تَتلَقَّ التربيةَ المناسبة ، وكان يخاطب

60 ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير/الصفحة:103.

الجزائريين فيقول: [إذا أردتم إصلاحها الحقيقي فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها ، فإن حجاب الجهل هو الذي أخّرها ، وأمّا حجاب الستر فإنه ما ضرّها في زمان التقدّم ، فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكانًا عاليًا في العلم وهنّ متحجّبات ، فليت شعري ما الذي يدعوكم اليوم إلى الكلام في كشف الوجوه قبل كلّ شيء..]

إن ابن باديس لا يغيب عن فكره ما هو مشاعٌ عند العامّة من أنّ المرأة خلقت لتكون الأمّ والمربيّة للإنسان في أضعف مراحل حياته ، لكنه لا ينظر إلى هذه الوظيفة من الوجهة الغريزية الحيوانية التي تتعلق بالإنجاب والإرضاع ورعاية المولود ، ولكنه ينظر إليها نظرة الإسلام الراقيّة الساميّة في أنّ المرأة شرّفها الله بأن جعلها صاحبت الدور الأعظم في توجيه الطفل والإسهام بنصيب أكبر في صناعة فكره وخصائصه الوجدانية والعقليّة ، كما شرّفها بأن جعل نبّي الرحمة يوصي بها خيرا61 وهو يقدّر المرأة المسلمة التي تخدم أمّتها فتغذّيها وتمدّها بالرجال والنساء الصالحين ليتولوا رفع رايتها وإعلاء شأنها وذكرها بين الناس . هكذا كان ابن باديس يرى أنه يجب علينا أن نعلمها كلّ ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها ، وتربيتهاعلى الأخلاق النسويّة التي تكون بها المرأة امرأة لا نصف رجل ونصف امرأة، وكان رحمه الله ببلاغته المعهودة يقول [فالّتي تلد لنا رجلاً يطير خير من التي تطير بنفسها]62

إن تعليم المرأة الجزائرية وتهذيبها وإعدادها كان جزءًا من المشروع العام العظيم وهو تحرير الأمّة الجزائرية من واقعها السيِّء ، وواقع المرأة كان صفحةً قاتمةً من هذا الواقع الذي يجدر بكل فردٍ جزائريٍّ يمتلك أدوات التحرر منه أن يسهم فيه. ابتلي المجتمع الجزائري بالاحتلال الفرنسي ، وكان الواقع الاجتماعي الجديد قد بدأ يلقي بظلاله على عادات وطباع الجزائريين ، ولا شكّ أن المرأة لن تكون بمعزل عن هذا المدّ التأثيري لطباع وعادات

61 وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، قال رَسُولاللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : ﴿أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم﴾رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح. وعن عمرو بن الأحوص الجشمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في حجة الوداع يقول بعد أن حمد اللَّه تعالى وأثنى عليه وذكر ووعظ، ثم قال :﴿ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هُنَّ عَوَانٌ عندكم، ليس تملكون منهنشيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ألا إن لكم على نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا :فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن ﴾ رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح.

62 ابن باديس وعروبة الجزائر /محمد الميلي/ص:.137.

القادمين تطال طريقة المعاش من اللباس والحديث وغيرها من مظاهر الحياة ، ولا ننكر أن لفيفا من النساء الجزائريات استسلمن لهذه الرياح الهوجاء فتغيرت طباعهن وظهر ذلك في سفورهن وتبرّجهن وتسريحات شعورهن و تحرّرهن المفرط ، غير أن هذه الفئة كانت محدودة ، لطبيعة المجتمع الجزائري المحافظ الذي تمثل فيه المرأة أمرا خطيرا ذا شأن في ميزان الشرف والسمعة والرجولة ؛ وهي الخطوط الحمراء في المجتمعات العربيّة المحافظة.

وإذا ما تساءلنا عن التعليم الذي يراه ابن باديس مناسبًا وضروريًا للمرأة الجزائريّة التي يُنتظر منها ان تكون أداة من ادوات التحّرر فإنه يحدد أدواته بقوله:[تعليم البنات تعليما يناسب خلقتهنّ ودينهنّ وقوميتهنّ، فالجاهلة التي تلد أبناء للأمّة يعرفونها مثل أمهاتنا . عليهنّ الرّحمة . خيرٌ من العالمة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها، تعليم كلّ واحد لأهله بما عنده من علم، ويوم نسلك هذا الطريق في تعليم المرأة ، والطريق السابق في تعليم الّرجل سلوكا جديّا نكون . بإذن الله . قد نهضنا بهما نهضة صحيحة نرجو من ورائها كلّ خير وكمال]63

إن التعليم والتربية والتهذيب كلّها جزئيات في مجموع متكامل يُراد به تهيئة وإعداد المواطن الجزائري تهيئة للأمّة الساعية إلى التحّرر ، هذه الخدمة التي تجعل الأمة المتعلّمة برجالها ونسائها وفق تعليم ممنهج ومدروس متوافق مع الشريعة الإسلامية مُراعٍ لخصوصية الجزائر وتاريخها وواقعها أمّة مؤهّلة ومتحفّزة للنهضة ، والنهضة ليست إلا جسرًا ينقُلُها من حياة الاستعمارِ والاستعبَاد والإذلالِ والقهرِ إلى حياة الحريّة الكريمة والرفاهية والرُّقِيِّ تحت مظلّة شريعةِ الرَّحمان ، وهي الإسلام.

إن ما ينبغي أن نؤكّد عليه في هذا الفصل أن ابن باديس واثقٌ ومؤمنٌ بأن التعليَم الجيِّدَ الذي يُراعي حاجاتِ وظُروفَ المتعلمين وواقَعهم ، التعليَم الذي ينبُعُ من أصالَةِ الأمّة الجزائريَّة وتاريخها وعروبتَها وإسلامَها، التعليم الذي يُثمِّن دورَ المرأة في رباط الجهاد التربوي 64، التعليم الذي يزاوج بين المعرفة والتأهيل المهني ليصبح الفرد متعلّما عاملاً ... هذا التعليم هو السلاح الذي سيحّرر الأمّة الجزائرية من أصفاد الاحتلال الفرنسي

63 الشهاب /الجزء:10/ المجلد:05/نوفمبر1929م.

64يمكن لنا أن نقرأ في هذه الفكرة الأبعاد التربوية والاجتماعيّة والإنسانية في فكر الشيخ ابن باديس ، الذي لم يهمل المرأة في مشروع التحرير الذي خاضه مع الجمعيّة ، و هذه النظرة المتقدّمة في موقفه من تعليم المرأة وتأهيلها ترويا وعقديا ومهنيا ، تطرح عديد الأسئلة عمّا إذا كان هذا يتطابق مع الفكر السلفي الحديث ومواقف دعاته من مسألة عمل المأة ودورها في الحياة الإسلاميّة.

وأغلال الجهالة والتخلّف والضلالات ، ومن ربقة اللسان الفرنسي.، كما سيحرّرها من أغلالِ الحَاجة والمذلّة.



المحطة الثالثة : ابن باديس بين الأدب "الإصلاحي" و"الأدب الإسلامي"

إن الحديثَ عنِ ارتباطِ الشيخِ العلامةِ ابنِ باديسَ بالأدبِ يدفعُنا إلى اعتبارِ الرَّجُلِ أنموذجًا رائدًا متقدّما للأدب الإسلامي في الجزائر بامتياز وجدارة ، ومن باب أولى الحديث عن ماهية الأدب الإسلامي في المستهّل.

إن الحديث عن الأدب الإسلامي ينطلق من تفكيك هذا المصطلح إلى شقّين للوصول إلى حقيقة هذا النوع من الأدب الملتزم ، والمحوري باعتباره أداة فاعلة ووسيلة من وسائل الإبداع الفاعل في حياة المجتمعات المسلمة.

وهذان الشقّان هما : الأدب والإسلام؛ فالأدب مصطلح قديم ارتبط بالقيم الأخلاقيّة والتهذيب السلوكي والتوجيه العقلي عبر تاريخ الأمّة العربية ، وقد شهد هذا المصطلح تطّورا وتنوعا في الدلالة ارتبط بخصائص كّل مرحلة من حياة هذه الأمّة ، فقد كان في أوله موافقا للتربية والتهذيب السلوكي وتوجيه الفرد الناشئ إلى معرفة ما يُقال في كل موقف ، وما لايقال مراعاة لمقتضى الحال ، وكان الحكام والساسة والزعماء يعهدون إلى العلماء بأيام العرب وتاريخهم وأقوالهم وصنوف كلامهم بما في ذلك (القرآن الكريم) وعلوم اللسان العربيّة لتهذيب نفوس وتقويم ألسنة ابنائهم والأخذ بأياديهم لفهم واستيعاب معاني الحديث ودلالات الخطاب ، وهذا لتهيئتهم للحياة التي كانت تتوقّف على مهارات اللسان والإبداع التعبيري المتعلّق بالإلمام بأدوات البلاغة العربيّة ، وكان الأدب في تلك الفترة يكتسي صبغة وظيفية ، فهو أداة من أدوات التوافق مع الحياة الاجتماعية القائمة على خصائص علّة أهمها النزعة الفردية " الشخصية" والقدرة اللسانية من فصاحة لسان وبلاغة تعبير، وكان الأديب هو الماهر الحاذق المحيط علما بتاريخ العرب وأيامهم ووقائعهم ، وأخبارِهم وأنسابِ قبائلِهم ، وأمجادها أو مثالِبها ، الحافظ لأشعار شعرائها والمحيط بأقوال أشهر رجالها ونسائها ،وكان الأدب يعني الطرفة والمتعة ، واستغلال الكلام للخلاص من الورطات والمآزق، وعندما نشر الإسلام أرديّته البيانيّة على الحياة العربيّة تغيرت الحال ، فأمسى الأدب ملازمًا لمعنى الأخلاق والفضائل والقيم ، واستطاع الدين الجديد أن

يحدث تغّيا في مفهوم الأدب ؛ ولما كان الإسلام دينا داعيا إلى الاستقامة في الفعل والقول والالتزام بتوحيد الله تعالى وعبادته كنوعٍ من الشكر والحمد ، فإن الأدب صار لصيقا بما يهذب النفس الإنسانية وفق تعاليم القرآن الكريم ، وها هو المصطفى صلى الله عليه وسلم أديب العرب الأّول وسيّد المتأدبين من آدم إلى قيام الساعة يفاخر ، ويؤكّد بأن مؤّدبه هو العزيز الجبّار قائلا : ﴿ أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي﴾ فالأدب هو ما يضمن للفرد سّمو النفس عن الرذائل والخطايا وسفاسف الأقوال والأفعال، وارتبط الأدب في هذه الفترة بالكتاب المبين ، هذا القرآن الكريم الذي كان آية ورائعة أدبيّة أعجزت العرب وهم أساطين البلاغة وأربابُ البيان ، أثّر القرآن في دلالة ومفهوم الأدب ، فصار معنى لكلّ كلام جميل يلتزم صاحبه بما في هذا الكتاب من القيم العقدية كالتوحيد والأخلاق، وصار الأدب أداة فاعلة بنّاءة تبني نفوس البشر لتتحقّق لهم السعادة في الدّارين:﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾65 ، وأثمر هذا الكتاب في إذكاء الشعور بالواجب الدّاعي إلى توجيه الفرد إلى أن يكون عاملاً إيجابيًا

في أّمته وبين إخوانه، كما لا يفوتني أن أشير إلى أن هذا الكتابَ كما أثّر في فهم الناس للأدب فقد وّجههم إلى نبذ بعض الظواهر المشينة التي كانت تجعل الأديب يظهر في صورة الشخص المحطّم والمتعلّي على القيم الأخلاقيّة ، فاتّخذ مواقف حازمة من الإساءة اللفظية إلى الآخرين والسخرية منهم ومن خِلقتهم ، وهذا ما كان رافدًا من روافد نوع من الشعر سّمي الهجاء اتّخذ من التعريض بالآخرين وبيان عيوبهم ، أو الادّعاء عليهم ونسبة ما يسيء إليهم من الصفات ، ليفقدوا قدرهم وهيبتهم وقيمتهم الاجتماعيّة،﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ 66 وكان الهجاء أمرا شائعا بين العرب وبابًا عريضًا من أبواب الشعر والتكسُّب عندهم، ومن شاء التعّمق فليعد إلى دواوين الشعراء الأّولين في الجاهليّة، وحتى المتأّخرين في العصر الأموي (شعراء النقائض) ، ولْيَر كيف كان هذا الشعر كالصواريخ المدّمرة التي تبعث الإحن والضغائن والأحقاد في النفوس وبين

65 سورة الإسراء/الآية:09.

66 سورة الحجرات/الآية:15

القبائل ، فدمّر حياتها الاجتماعية ووقف في سبيل تمدّنها وتحضّرها بتسببه في عدم استقرارها وحروبها أ(ّامها) ، فتشعل الحروب بين القبائل وتأتي على الأخضر واليابس.وفقد الأدب جانبًا آخر هو الغزل والتشبيب بمحاسن النساء الجسدية ، وكان الغزل عنهم تشبيبًا وعرضًا لمفاتن المرأة من صدرٍ ناهدٍ وخصرٍ أهيفَ و..وكان شعراؤه لا يتورّعون عن المبتذل والفاحش من القول وتصوير الفعل الذي تأباه الفطرة الإنسانية التي هذّبها القرآن والإسلام.

كما استفاد الأدب من القرآن الكريم استفادة كبيرة تمثلت في ثراء القاموس اللفظي والأسلوبي بآليات تعبيرية جديدة وحديثة ، لم يألفها العرب المولعون المسحورون بجمال العبارة وسحر البيان وحكمة الشعر..ولست في مقام التفصيل لأحدّث القارئ عن هذا الجانب الذي تحبّه نفسي حبّ العرب للشعر!!

والخلاصة في الشقّ الأوّل أن الأدب لم يكن له يوما من الأيام تعريف موحّد قارٌّ أي ثابت لدى العرب عبر تاريخهم الطويل ، بل كانت دلالاته تتطّور استجابة وتماشيا مع الأوضاع السياسية والدينية والفكرية ، فالأدب في الجاهلية فخْر واعتزاز بالفرد أو القبيلة وهجاء وتعريض بأعدائها ، وهو وصف للرحلة والصيد والفرس وبكاء على الأطلال ، وهو تشبيب بالحبيبة وبكاء على مراتع اللهو، بينما في الإسلام هو الالتزام بالدين الجديد وهو رسالة الدعوة إلى هذا الدين، وهو الدفاع عن خندق المسلمين والذود عن حياضهم من المتجّرئين عليهم بالقول أو الفعل، وكان حسّان مجّسدا لتحّول مفهوم الأدب في الإسلام إلى طاقة وأداة تتجاوز المتعة والامتاع والفن إلى كونه وسيلة تهذيب وتقويم ومنصّة دفاعيّة عن الدين الجديدة ونافذة على نشر هذا الدين وأداة للبناء ؛ بناء المجتمع الجديد ، كما كان وسيلة لتأليب النفوس وجمعها حول رسالة الجهاد والفتح ونشر رسالة الإسلام، وتطّورت كلمة الأدب بعد ذلك تطّورا رهيبًا كما تطورت حياة البشر ، وكان لانفتاح الأمم على ثقافات بعضها وتأثّرها ببعضها بعض نتيجة الرحلات والأسفار ووسائل الإعلام وتطور مظاهر التواصل وأدواته سببا وجيها في تطّور وتحّول الأدب إلى مفاهيم مختلفة ، وصار الأدب في كل أّمة أو شعب مرادفا لاعتقادها وإيديولوجيتها ،وظهرت المدارس الأدبيّة لتتباين في تحّديد معنى " الأدب" بين كلاسيكية ورومانسسية وسوريالية وواقعية....و..و و أسهم التطور الفكري والنزعات العقليّة في تحديد مفهوم الأدب الذي صار متماشيًا ومتناغمًا مع شخصية الأديب وتوجهاته الفكرية ، وتوزّع الأدب بين

النّقاد وأهل الأدب ، فكان منهم من يؤمن برسالته الحضارية الأخلاقية القيمية ، ومنهم من يُنكر على الأدب ذلك لأن الالتزام بهذا المفهوم يتعرض مع الحريّة التي هي سّر الأدب وعصا الأديب السحرية ، ومتى التزم الأدب بقضايا أمته أو شعبه صار الأديب موظّفا يخدم فكرة غيره ، وصار أدبه مجّرد واجبات لاتختلف عن الواجبات المدرسية ، وظهر دعاة الفن للفّن من الأدباء والكتاب في طابور حاملي شعار " الأدب للأدب" ، وحّرر هؤلاء الأدباء من أيّ مسؤولية في ما يكتبون ، ولو كان ذلك متعارضًا مع منظومة الدين والفكر والقيم ، وصار الأدب مرادفًا للإبداع الحّر حريّةً مطلقةً وصارت القيمة فيه محصورةً في ما يحمله من جماليات الإبداع التعبيري ، وأخذ الناس في تحديد مفهوم الأدب كل مأخذ وتفّرقت الأمم في تعريفه شيعًا وتياراتٍ وجماعاتٍ ، وحتى في البلاد العربيّة طالتنا نسائم هذا الاختلاف أو إذا شاء البعض " عواصفه" فظهرت عندنا في بلاد العرب والمسلمين دعوات إلى "لائكية" الأدب و"علمنته" ، وأخرى لتطليق الأدب من القيم والمسؤولية الأخلاقيّة وبحّجة تحرير الأدب ليتطّور كما تطّورت الآداب الغربيّة ، وفي خضّم هذا الصراعبرز تياران قويّان أحدهما يفهم الأدب على أنه قيم والتزام بمصلحة الأّمة ويفرض على الأديب العمل لصالح أّمته والانصياع بأدبه لمصلحتها ، وتتحول الكتابة لدى هذا التيار إلى رسالة حضارية ووظيفة مهّمة ، وتيارٌ آخر متمّرد . وما أكثر ما نسمع حركات التمّرد . على المجتمع والالتزام في طابور الأّمة ، يفهم الأدب على أنّه حريّة مطلقة وإبداعٌ يتحّرر من إملاءات المجتمع والّدين ، بل ويرفضها أو يعاديها حسب قناعات الأديب ولأن الحديثَ عن مفهوم الأدبِ طويلٌ ومتفّرع ليعذرني القّراء في الإيجاز الذي لا أتمنّاه مخلاًّ، لأنني أردت التقديم به للموضوع لاغير، فهو ليس هدفا في ذاته، والمهّم أن الأدب مرادف للأبداع والابتكار والجديد في الفكرة والأسلوب والأدوات، وفي تصوير واقع الإنسانية وملامسة أحاسيسها ومشاعرها وخيالها وفكرها، وهو لا يختلف عن أشكال الإبداع الفنّي الأخرى كالرسم ، فكلاهما تعبيرٌ ، وإذا كان الأديب يختار الكلمات المتناغمة التي تخدم فكرته وتحقق الصورة الجميلة في ذهنه فإن الرسام كذلك يختار الألوان ويمزجها ضمن مقاربة تحّقق الجمال وتوصل الفكرة أو الإحساس .

أّما الشق الثاني من مصطلح " الأدب الإسلامي" فهو الإسلام و هو العقيدة والدين الذي ارتضاه الله لعباده ، واختاره ليوّحدهم في توحيدهم لله وتوّجههم إليه :﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ وما

اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾67 ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ﴾68

وهو الرسالة التي اختارتها العناية الإلهية لهداية البشرية المتألمة من أوجاع الضلالة والكفر وآلام المعاناة والمآسي بسبب انحرافها عن الفطرة التي خلقها الله عليها ، وهو الدين الذي يفرض بمقتضى نصوص مصادره التشريعية على المسلم أن يؤمن بما فيه وأن يعمل جاهدًا وفق الأوامر والنواهي ، وهي جملة الأحكام التي تحقّق للناس السعادة في الدّارين:﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾69.

وبذلك يكون هذا الدين العقيدة التي نسخت ما قبلها من العقائد ، فهي الباب إلى مرضاة الله تعالى ، وهي الدين الذي ارتضاه الله لعباده ، وأيّان التزم الإنسان بتعاليمه وحرص على أداء فرائضه وعباداته ، تغلغلت في نفسه هذه الفرائض لتتحول إلى التزام ومجاهدة للنفس على القيام بها في أوقاتها ووفق قواعدها ، فتحوّلت إلى سلوك وأخلاق وتهذيب موافق لمقتضى ما جاء الرسل صلى الله عليه وسلّم من أجله:﴿إنّما بُعثت لأتمِّمَ مكارِم الأخلاقِ﴾، فرسالة الإسلام مرادفة للأخلاق ، ورسالة الإسلام مرادفة للتعليم:﴿ إنّما بُعِثْتُ مُعلّما﴾،والإسلام ملزم لأتباعه بالانضباط والالتزام بما جاء به الّرسول صلى الله عليه وسلم في ممارسة الشعائر العبادية والنشاطات اليومية والأقوال والأفعال، والمسلِّم مسلّم وملتزمٌ في البيت والشارع والسوق وفي مكان العمل وفي المسجد وفي صيامه ، وفي سكوته وحديثه، وما ذلك إلا ليتحقّق له الاستفادة من آثار وثمار هذا الالتزام الديني، وإذا كان الأدب من مظاهر الفعل والنشاط الإنسانيين باختلاف أشكاله وأجناسه ، فإن الإسلام يفرض على المسلم أن يكون ملتزما بمنظومة القيم والمبادئ الإسلامية تنفيذا لأمر الله ، فما آتانا الرسولُ ﷺ نأخذه وما نهانا عنه ننتهي

---

67 سورة آل عمران/الآية:19.

68 سورة المائدة / من الآية:03. ونصّ الآية كاملا:﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

69 سورة الحشر/الآية :07ونص الآية كاملا: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

عنه امتثالا لأوامر الله واستجلابا لرضاه بمطلق طاعته.

والإسلام في مصطلح" الأدب الإسلامي" اسمٌ منسوبٌ إليه ، والنسبة تعني الارتباطَ المعنويَّ والانقيادَ إلى المنسوبِ إليه والأخذِ من صفاته وخصائصِه ، وبذلك يكون الأدب الإسلامي : جملةَ الآثار والأعمال الأدبية التي تراعي الإسلام كعقيدةٍ ترتبط بكلّ مجالات الحياة الإنسانية ، من تفكيرٍ وقول وفعل، وبذلك يتحقّق مبدأ مهمٌّ وهو " الالتزام الأدبي برسالة الإسلام" فالأديب المسلم هو الأديب الذي يبدع وفق فهم الإسلام للإبداع وهو الأديب الذي يحث ويدعو إلى ما يرسّخ الإسلام في النفوس، ويدعو إلى ما يدعو إليه الإسلام من فضائل وينهى بل وينفّر ممّا ينفّر منه الإسلام منه من الرذائل والمنكرات.

وكنت دائما أقول عن الأدب الإسلامي كما أفهمه هو الدّعوة إلى الله وإلى الإسلام لكن بطريقة إبداعية جميلة تخاطب المشاعر وتدغدغ الوجدان ، فإذا كان الدعاة يستعملون الوعظ والإرشاد ، فإن الأديب المسلم أومن يتصف أدبه ب" الإسلامي" فهو داعية إلى الخير والفضيلة والتوحيد والترفع بالنفس عن سفاسف الأقوال والأفعال والمعتقدات ، لكن بشرط استخدام الأدب استخداما إبداعيا، فالقصيدة الجميلة المؤثرة أو القصّة أو الخاطرة أو الرواية كلّها قوالب جميلة للدّعوة الإسلامية ، هي حقّ لنا ، قد ينكره علينا الساذجون والحمقى وقاصرو الفهم ، وكأنّ هذه الأشكال الجميلة والأدوات ليست إلاّ حكرًا عليهم ، وليست إلا قوالب تُصبّ. ولا أقول تُسكب لما في اللفظة من جمال التعبير وسمو الدلالة . فيها الّرذيلة والخنا والتجّرأ على الأخلاق . وقد شكا إلي وأنا أحبّر هذا الجزء أحد الأساتذة الأفاضل المبدعين قصور أفهام بعض المتجنّين على الأدب واعتقادهم بأن الأدب لايكون أدبًا إلاّ إذا سقط في مستنقعات تصوير حياة الرذيلة من زنا وعهر و.....، وأن من تمام الأدب وجماله أن يصّور الأديب هذه العوالم الفظيعة المقيتة المدّمرة للعقول والمخربة للعقائد والتي لا تأتي إلاّ على ما تحتاجه الأّمة والفرد في أيام الجدب الفكري التي نعيشها. وما أخافه أن تنتقل هذه الفكرة المدّمرة على عقول الشباب المسلم الذي دعوت مرارا وتكرارا إلى تطعيمه وتحصينه بروائع الأدباء المسلمين ككتابات الّرافعي والشيخ الإبراهيمي وغيرهما الكثير.ليكتسب المناعة من هذا المرض العضال ، أعاذ الله أبناء وبنات الأّمة منه.

أعود لأقول بأن الأدب الإسلامي الكتابة الإبداعيّة المتوافقة مع مبادئ وأصول الإسلام : فكرًا ولغةً وهدفًا وغاية!!

إنّ الأمّة التي لا تملك أدبًا وثقافة ليست أمّة وإنما هي قطعان من الآدميين الفوغائيين ومصيرها الفناء بلا أثر........المنتدى

فأدوات الأديب المسلم اللفظُ المحتشُم الّراقِي اللائُق ، وهذا ممّا يسهل الحصول عليه بالدّربة والدراسة والفكرةُ السليمةُ الصائبةُ التي تعمل لخير الإنسانية غير المتعارض مع دعوات الله تعالى إلى عباده، الفكرة البنّاءة التي تحقّق الخير والنماء وتدعو إلى الاهتداء، والابتكار والتجديد والبحث عما يستثير الأذواق السليمة من أشكال التعبير الجميل بتوظيف الأدوات الفنية والبلاغيّة الّراقية ، لتكون الفكرة أشهى وأدعى للتأثير في النفوس ؛ وكّل ذلك من اجل غاية نبيلة هي أسمى غاية وأروع غاية يمكن أن يكتب كاتب أو أديب من أجلها ، وهي إرضاء الله تعالى، وما أكثر الأبواب التي يمكن الولوج منها إلى هذه الغاية.

ومثال الأديب المسلم في نظري هو الأديب الّداعي إلى مثل هذا القول

ومن رضي الحياة بغير دين(*) فقد جعل الفناء لها قرينا

ولا أوّد الاسترسال في الحديث عن الأدب الإسلامي فالغاية من هذا الفصل الحديث عن الشيخ ابن باديس وعلاقته بالأدب ، وهل يمكن اعتبار ما كتبه في الصحف وما نظمه من أناشيد وأشعار أدبًا إسلاميًّا؟

إذا كان الأدب الإسلامي مرادفًا للأدب الملتزم بما جاء به الإسلام في الأفكار والمضامين والأدوات وأشكال التعبير فإنّني أحسب عبد الحميد أديبا إسلاميا بامتياز. فالّرجل بالعودة إلى شخصيّته الإسلامية المحافظة التي تتجلّى في تديّنه والتزامه بالقيم والأحكام والمُثل وبالنظر إلى كتاباته التي كانت في مضمونها: إّما دعوة لأّمته بالعودة إلى الإسلام وتعاليمه السمحة لتكون الخلاص لها مما هي فيه من التردّي الاجتماعي وأسباب الشقاء ، وإّما دفاعا عن قضايا الأمة الإسلامية كمسألة الاحتلال ومسألة فلسطين ومسألة الشعب الجزائري التي لا يفصلها الشيخ عن بعدها وطبيعتها الإسلامية ، وغيرها من الموضوعات التي تمّس وجدان الأّمة المسلمة وتضع اليد على جراحاتها لتبلسمها وتوقف آلامها.

وقبل الحديث عن ذلك ، لا بأس أن أشير إلى أن سّر التزام عبد الحميد بن باديس بهذا الأدب ليس شغفا أو تعلّقا أو وَلَهًا بالأدب كما أغلب الهواة والأدباء في بدايات توجههم الفكري ، وإنما هو استجابة لحاجات ملّحة فرضتها رغبته الجاّدة والخالصة في إصلاح الأحوال وتغيير الواقع إعدادا لأّمة كبت الاحتلال الفرنسي أنفاسها وكمم فاها لتظّل صامتة تتجّرع مرارة العبودية والاضطهاد والقمع والبؤس، وبذلك فإن ممارسة الأدب لم تكن من باب المتعة والإمتاع وإنما هي من باب الالتزام بقضايا شعبه ، وهو مظهر من مظاهر الوطنية والالتزام الديني ، فهو مسلم يرى شعبه وإخوانه من

أبناء دينه يُساسون الذلّ والهوان .والانتماء يفرض عليه أن يقف بكلمته وأدبه إلى صفّهم يذود عنهم عاديات الفرنسيين ومآسي الأيام.

إن الالتزام بقضايا الأمّة يجسّده كمثال موقفه من القضيّة الفلسطينية التي أعتبرها مؤشرا لإسلامية أيّ أديب ، هذا الجرح العميق المؤلم في الجسم والضمير العربي الإسلامي يبدو في نظري التأكيد والإثبات على أن ابن باديس كان يمارس" الأدب الإسلامي" بقناعات راسخة.و لابأس أن ندرج هذا المقطع من مقال له بعنوان (فلسطين الشهيدة):

[... نقول لقسم كبير من اليهود بأن هناك من اليهود عددا كبيرا يستنكر هذا المأتى الجنوني الظلوم ، ويعترف بجمال الإسلام والسعادة التي نعمت بها اليهود ويهود القدس في ظله الوافر الأمين ، فقد قدّم رئيس الطائفة السامرية إلى حاكم نابلس عريضة احتج فيها باسم الطائفة على الاعتداءات الأثيمة التي وقعت على العرب في القدس ، وحيفا ، ويافا، هذا نصّها:نحن أفراد الطائفة السامرية رجالا ونساء نستنكر بشدّة أعمال الاعتداءات الفظيعة التي يقوم بها أشخاص من اليهود ضدّ قوم أبرياء في حيفا ويافا والقدس ونطلب بشدة الحيلولة دون تكرار هذه الحوادث المروعة ونصرح بأننا . على أقليّتنا . نعيش منذ ألوف نقول لقسم كبير من اليهود بأن هناك من اليهود عددا كبيرا يستنكر هذا المأتى الجنوني الظلوم ، ويعترف بجمال الإسلام والسعادة التي نعمت بها اليهود ويهود القدس في ظله الوافر الأمين ، فقد قدّم رئيس الطائفة السامرية إلى حاكم نابلس عريضة احتج فيها باسم الطائفة على الاعتداءات الأثيمة التي وقعت على العرب في القدس ، وحيفا ، ويافا، هذا نصّها:

[نحن أفراد السنين مع مواطنينا العرب في سلام ولم يحدث أن اعتدى منهم أحد علينا أو حاول اضطهادنا..].

هذه هي الحالة العامة التي كانت عليها فلسطين ألوف السنين حتى جاء الزوجان المشؤومان: الصهيونية والاستعمارية فكان البلاء على فلسطين كل عربها ويهودها ، فليست الخصومة بين كل عرب فلسطين ويهودها ، ولا بين كلّ مسلم ويهودي؛ على وجه الأرض ؛ بل الخصومة بين الصهيونية والاستعمار الانجليزي من جهة والإسلام والعرب من جهة، والضحية فلسطين والشهداء حماة القدس الشريف والميدان رحاب المسجد الأقصى وكلّ مسلم مسؤول أعظم المسؤولية عند الله تعالى على كلّ ما يجري هناك من أرواح تُزهق وصغار تُيتّم ونساء تُرمّل وأموالٍ تُهلَكُ وديارٍ تُخربُ وحُرماتٍ تُنتَهكُ ؛ كما لو كان كل ذلك واقع

بمكة أو بالمدينة إن لم يعمل لرفع ذلك الظلم الفظيع بما استطاع.

يريد الاستعمار الإنجليزي الغاشم أن يستعمل الصهيونية الشرهة لقسم الجسم العربي وحطّ قدس الإسلام فيملأ فلسطين بالصهيونيين المنبوذين من أمم العالم ولأجل هذه الغاية الظالمة تجند الجنود الإنجليز وتُجمع أموال الصهيونيين وتُسفك الدماء البريئةُ ،وتُلطَّخ بها الرحابُ المقدّسةُ .

يجري كلُّ هذا وترتفع له أصوات العالم الإسلامي والعالم العربي بالاحتجاج والاستنكار ، ويُخاطب ملوك العرب والإسلام حكومة الإنجليز فلا تزيد آذانها إلا صمما؛ ولا قلبها إلا تحجّرا ؛نقول العالم الإسلامي والعالم العربي ؛ لأننا لم نر ولم نسمع من غيرهما احتجاجا جديدا واستنكارا صارخا حتى الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها بصراخهم ويبذلون من مساعداتهم في أوطان أخرى لم نرهم إزاء فلسطين الشهيدة إلا سكوتا أو شبه سكوت ، وشتّان ما بين مَنْ يريد المقاومة ومن يريد رفع الملام!؟ .]70[

والمسألة الفلسطينية تعكس عمق الانتماء وقّوة الشعور بهذا الانتماء الذي لا يغيب في أدب وكتابات الشيخ ابن باديس، وبجرأته المعهودة يحّمل الإنجليز أسباب شقاء الشعب الفلسطيني، ويحدّد حقيقة الصراع الذي هو ليس صراعا بين اليهودية والإسلام كما أراد " الاستعمار" والصهيونية إيهامنا، ليزيد من حدّة الشعور بالظلم، ويضاعف الأحقاد بين المسلمين واليهود ، يقدّم القرائن على أن الإسلام هو من حمى اليهود وأعطاهم الأمان وكّرس لهم حقوقهم ، وألزم المسلمين بها ، وهذا بشهادة التاريخ ، و يستنكر ابن باديس مشاعر الاستنكار والرفض والإدانة التي تقرع أسماعنا من مسؤولينا وسياسيينا دون أن يتحّركوا أو يبادروا بما يسكت جراح وآلام الشعب الفلسطيني ، وهو يعي كيف أنّ هؤلاء إنّما يتظاهرون لُيرفع عنهم اللوم.

وهذا الأنموذج يكشف لنا الخصائص البنائية والأسلوبية للمقالة الباديسيّة ، التي تعتمد في الغالب على اللفظ البسيط وتجنّب التعقيد اللغوي ، ولم من شأنه أن يُتعب الأذهان ، ويحّرف الأفهام عن حقيقة ما يريد الإفصاح عنه ، ولا يدعنا هذا القول نعتقد بأن الّرجل كان يعمد إلى التيسير في عرض المعاني على حساب اللفظ فيأتي مبتذلا، بل إن خلاف ذلك هو الصواب فالّرجل كان أحرص على انتقاء اللفظ الدّال الموحي وعلى سلامة التعبير ، وهذا من الصفات التي تميّزه ككاتب وخطيب.

70 الشهاب / الجزء السادس /المجلد:14/أوت1928.

وهناك من اشار إلى أسلوبه الأنيق في الكتابة وهو ما يعكس نبوغه وإبداعه الأدبي في الكتابة حيث يقول:وهو كاتب ذو سلاسة وعذوبة وسهولة، وأسلوبه أسلوب سهل ممتنعٌ لا يستعمل السجع، ولا يتكلّفه ، كيف لا، وهو الدّارس لكتاب الأمالي وديوان الحماسة ، وديوان المتنبي ، مقدمة ابن خلدون ، والعواصم من القواصم ،ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة،،من قبل ذلك كلّه معجزة الأدب العربي ، وآية روعته : القرآن، وجمال حديث صاحب جوامع الكلم ، وأفصح من نطق من بني يعرب؟ وهو شاعرٌ يفيض الشعُر من قلبه ، وخطيبٌ ينسيك سحبان وقسّ ، ولا يتلعثم ولا يتردّد، يستولي على النفوس ، ويملك العقول..][71]

وقد أشاد كثيرون بقدرته ومواهبه الخطابية ، فقد كان صاحب ملكة وقدرة على الارتجال تورث الدهشة والإعجاب ، و ما أكثر ما كان يجد نفسه في تجّمع أو مناسبة عامّة يرتجل خطابه لساعات دون أن يضطرب أو ينتهي ما في جعبته من الكلام وكأنّه يغرف من بحر ، ولا أدلّ على ذلك من خطبته الشهيرة التي ألقاها في نادي الترقي بالعاصمة الجزائر سنة 1939م بعنوان " العرب في القرآن" والتي كشفت للحاضرين مقدر ما يتمتع به الّرجل من قدرة على الإقناع والمحاججة والاسترسال ، فقد تكلّم لساعات وجاء بالعجاب ، مما أدهش الحضور ومنهم الشيخ الطيب العقبي . رحمه الله . الذي كان صاحب حرفة وواحدا من أشهر خطباء الجزائر ، وقد اندهش الحاضرون لفصاحته وبلاغته وثقافته الواسعة ، ومنطقه في الإقناع واجتذاب الأسماع والتأثير على القلوب، وكان الموضوع موضوعا خاصّا لايجازف بطرقه إلاّ من كان ذا باع في مجال الأدب والعلم بتاريخ العرب وماضي أممهم وقبائلهم ،فضلا عن العلم بالقرآن الكريم.

ومما جاء في هذه الخطبة قوله : [العرب مظلومون في التاريخ فإن الناس يعتقدون ويعرفون أنّ العرب كانوا همجا لايصلحون لدنيا ولا لدين حتى جاء الإسلام فاهتدوا به فأخرجهم من الظلمات إلى النّور.

وهكذا يتخيّل الغربيّون العرب بهذه الصورة المشّهة ،ويزيد هذا التخيّل رسوخا ما هو مستفيضٌ في آيات القرآن من تقبيح ما كان عليه العرب ليحذّرنا من جاهلية أخرىبعد جاهليّتهم.

والحقيقة التي يجب أن أذيعها في هذا الموقف هي أن القرآن وحده هو الذي أنصف العرب، والناس بعد نزول القرآن قصروا في نظرتهم التاريخية إلى

71 آثار ابن باديس/الصفحة:91.

العرب فنشأ ذلك التخيّل الجائر عن القصد ، والتاريخ يجب ألاّ ينظر من جهات متعدّدة ، وفي العرب نواحٍ تُجتَبى ونواحٍ تُجتَنَب ، وجهاتٌ تُذَمّ وتُقبَّح وجهات يُثنى عليها ، وتُمدَح ، وهذه هي طريقة القرآن بعينها ، فهو يعيب من العرب رذائلهم النفسيّة كالوثنيّة ونقائصهم الفعليّة كالقسوة والقتل ،ويُنوّه بصفاتهم الإنسانية التي أشادوا بها في مدنياتهم السالفة واستحقّوا بها النهوض بمدنية المدنيّات .

ولنَذكُر عادا فهي أُمّة عربية ذات تاريخ قديم ، ومدنية باذخة ذكرها القرآن فذكرها بالقوّة والصّولة وعزّة الجانب ونعى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوّة قال تعالى:﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾72

فالنظرة التاريخية المجّردة في هذه الآية وفيما ورد في موضوعاتها ترينا أن عادا بلغت من القوة والعظمة مبلغا لم تبلغه أُمّة من أمم الأرض في زمنها ، حتى إنّ الله جلّ شأنه لم يتحد قولهم (من أشدُّ منا قوّة) إلاّ بقوّه الإلهية التي يذعن لها كلُّ مخلوق ، ولو كانت في أمم الأرض إذّاك أُمّة أقوى منها لكان الأبلغ أن يتحدّاهم بها ، وأن أُمّة تقول هذه الكلمة بحالها أو مقالها لهي أُمّة معتدّة بقولها وعظمتها..]73

وبمثل هذه النزعة العقليّة وهذا الاستقصاء التاريخي و التحليل المنطقي و المعالجة الموضوعيّة يواصل الشيخ ابن باديس حديثه وكتابته عم أُمّ العرب في القرآن الكريم بأسلوب شيّق رصين متين ، هو الأسلوب المتأثّر بالقرآن الكريم وبالقاموس الإسلامي في جميع أشكاله ، في اللفظ ، ومنطق المعالجة الذي يميل إلى البرهنة والدليل العقلي المقنع ، وإلى الّرونق اللفظي و التناغم بين المفردات ، فلا تكاد تجد لفظة تنبو عن غيرها ، بل يسير التركيب في انسجام وتناغم عجيب يكشف لنا عن قدرة ابن باديس وخصائصه الأسلوبيّة الّراقيّة.

إنّه ـ رحمه الله ـ يمثل الأدب الإسلامي في مستويات عدّة ،وعلى درجات عدّة ، في مستوى النصّ الذي لا يخفى التأثر فيه بالقرآن والالتزام به فهو مصدر البراعة الأدبيّة المعجزة التي يسعى الكاتب أن يرقى إلى أسلوبها ، وهو مصدر الإلهام ، وهو المرجع والمصدر للاستشهاد والاقتباس، وهذا سمت الأدب الإسلامي الذي يتكلّم ويبدع بروح القرآن

---

72 سورة فصلت/الآية:15.

73 نشرت خلاصة هذه المحاضرة على ثلاثة أعداد من الشهاب التي صدرت تباعا في فيفري ، مارس وأفريل1939م. ويمكن العودة إلى (ابن باديس وعروبة الجزائر / محمد الميلي /الصفحة:222.

، وفي مستوى اختيار الموضوعات التي أشار إليها الإسلام وبيّـنت عظمة رسالته ، فما حديثه عن العرب إلاّ منفذ موصل إلى الحديث عن قوّة وتأثير الإسلام في الانتقال بالأمم من طور البداوة و" الجاهلية "إلى طور الارتقاء الإنساني والمدنيّـة ، وهي رسالة الأديب الإسلامي الذي يحمل رسالة الإشادة بهذا الدين العظيم الذي نقل أمّة بائسة ترفل في الجهالة وتتجرع علقم التخلّف والعصبية والشّرك إلى مصفّ أعلى وأرقى . ما كانت تحلم به يوما . وهو مصفّ الأمة المتمدّنة التي كتب الله لها أن تصبح الأمّة الرائدة القائدة لغيرها من الأمم ، التي كانت فيما سلف أكثر رقيًّا منها ، وكانت تسخر وتأنف من حالها.

وفي مستوى الخطاب العقلي الذي يبتعد عن اعتماد التأثير العاطفي والوجداني أو الانحياز الذي سيكون سببا داعيا إلى السقوط في شرك الذاتية وأحكام " الهوى" وهذه الصفة العقلانية في أدب الشيخ ابن باديس هي صفة الأدب الإسلامي الذي يركّز ويعتمد العقل باعتباره القوّة الفاعلة المبدعة التي خصّ الله بها الإنسان ، ولا احسب الأدب الإسلامي ينكر العواطف والوجدان السليم النظيف الذي يصطبغ بصبغة الفطرة السليمة ، فالإسلام والأدب الإسلامي لا ينكران الحبّ والحقد والمشاعر لأنّ هذه الأمور قيم أكبر من الأدب نفسه ، فهي نوازع وقيم زرعها الله في حياة الناس وبثّها في نفوسهم لتكون حياتهم ذات طعم ومعنى؛ وما معنى حياتنا إذا خلت من العواطف والمشاعر ؟!ستستحيل عندئذ إلى حياة ماديّـة بليدة ، تتعارض مع الفطرة التي خلق الله عليها الإنسان ، كما أن العقل يعمل عمل المرشد الموّجه لهذه المشاعر والعواطف لئلا تنفلت وتخرج عن إطارها الصحيح فتحيد عن رسالتها ؛ نعم رسالتها ؛ فما أحسب الله تعالى في خلقه لنا وخصّنا بهذه المشاعر إلاّ لأن هذه المشاعر " رسالة " ذات جدوى ووظيفة في حياتنا، ولا يمكننا التنكّر لفطرتنا، والتنكّر لما أراد الله لنا ...ثمّ ما قيمة الأدب إذا خلا من المشاعر الرّقيقة والعواطف النبيلة ، وما قيمة الحياة إذا انتزعت منه هذه المنكّهات العجيبة!؟

وهو أديب إسلامي على مستوى طريقة المعالجة والتناول ، فالإسلام موّجه لطريقة التفكير وهو مؤثر فاعل في نظرة الأشخاص إلى الأشياء والحياة ، ولا أحسب أن قراءة قصّة أو رواية يكتبها دوستويفسكي تتناول الشعور الإنساني أو الإيمان ستكون مماثلة او مطابقة لأخرى يكتبها الّرافعي أو غيره ممّا قد نعتبر أدبهم " أدبا إسلاميا"!!

إن ابن باديس . في نظري الخاص . أحد أقلام الأدب الإسلامي في الفعالم العربي وهو يمثل

الأدب الإسلامي في الجزائر تمثيلا واضحا، في فنّه ومضامينه ، ولا أحسبه إلاّ واحدا من أعمدة وركائز هذا الأدب ، ولعل ما جعله يكتب على هذا المنوال وبهذه النمطية التي تدفعني إلى اعتباره أديبا " إسلاميا" بالمعنى الاصطلاحي الأدبي لكلمة الإسلام هو ثقافته التي قال عنها الشيخ البشير الإبراهيمي في معرض إشادته بالّرجل: [عالم دينيٌّ ولكنّه ليس كعلماء الدّين الذين عرفهم التاريخ الإسلامي في قرونه الأخيرة ، جمع الله فيه ما تفرٌّق في غيره من علماء الدّين في هذا العصر ، وأربى عليهم بالبيان النّاصع ، واللسان المطاوع، و اللسان المطاوع ، والذكاء الخارق، والفكر الولود ، والعقل اللّماح، والفهم الغّواص على دقائق القرآن ، وأسرار التشريع الإسلامي ، والاطّلاع الواسع على أحوال المسلمين ، ومناشئ أمراضهم ، وطرق علاجهاوالّرأي السديد في العلميّات والعمليّات من فقه الإسلام وأطوار تاريخه ، والإلمام الكافي بمعارف العصر مع التمييز بين ضاّرها ونافعها]74

ولعّل حديث الشيخ البشير الإبراهيمي وتحليله لثقافة وملكات ابن باديس الأدبيّة لا تترك مجالا لي ولغيري في تحديد مواهبه الأدبيّة المتميّزة وهي أدوات ضرورية لمن يريد أن يحوز السبق في الأدب الإسلامي وهي: البيان النّاصع ، واللسان المطاوع، و اللسان المطاوع ، والذكاء الخارق، والفكر الولود ، والعقل اللّماح، والفهم الغّواص على دقائق القرآن ، وأسرار التشريع الإسلامي ، والاطّلاع الواسع على أحوال المسلمين ، ومناشئ أمراضهم ، وطرق علاجها ، والّرأي السديد في العلميّات والعمليّات من فقه الإسلام وأطوار تاريخه"

لقد استجمع الّرجل الفكر السليم والعميق والثقافة الواسعة الشاملة بالإسلام وغيره واللسان القويم ، والإبداع والقدرة على الإحساس ، وملكة تذّوق ما في القرآن الكريم وغيره من الأعمال الأدبيّة الّراقية ، وهذه أدوات الأدب الإسلامي ومستلزماته.

الأدب الإسلامي أدب ملتزم بقضايا الإنسانية ، ويتدرج في الالتزام مراعيا الأولويات ، وابن باديس كان دوما يعتبر أن من يخدم نفسه يخدم جماعته ، ومن يخدم جماعته يخدم شعبه ، ومن يخدم شعبه يعمل لصالح أٌمته ومن يعمل لصالح أٌمته فإن ذلك معناه أنه عامل لصالح الإنسانية ؛ لذا فإنه لا معنى للأدب إذا لم يكن طاقة مّحركة لأسباب الخير وحصول السعادة الإنسانية ، ولا معنى له إذا لم يعمل على تحرير الأٌمة الجزائرية من شرك الاحتلال ومن شرك الجهالة والضلالة والفقر

74آثار الشيخ البشير الإبراهيمي / الجزء:05/ الصفحة:135.

والتخلّف ، فالأدب أداة فاعلة ومضادٌّ حيويٌ يساعد الأمة المريضة في استجلاب العافيّة والصّحة اللتين تمكنها من النهوض والاضطلاع بواجباتها كأّمة لذا ، كتب للأّمة الجزائرية وكتب عن مأساتها ، وأفرد لكل أفرادها ما يحتاجون من أدبه لتستقيم شؤونهم ، فكتب عن واجبات الجزائري المسلم والجزائرية المسلمة ، وكانت مقالاته الاجتماعية بلسما يداوي جراح أّمته المريضة ، التي طال بها المرض، وكتب عن الاحتلال الفرنسي ومساوئه وناوره ،ودافع عن حقّ الشعب في الحريّة ، ودافع بقلمه صحفيا وخطيبا عن آرائه وآراء فريقه من شيوخ الجمعيّة ، وناهض الأعداء ، وحارب الفساد والضلالات التي وجدت في الجهل المطبق والتخلّف والفقر وغض الغزاة الطرف عن واجباتهم تجاه الأّمة جّوا ومحيطا ملائمين للنماء والانتشار.

وكتب عن الأّمة العربيّة ودافع عن وحدتها وتاريخها ورافع عن إفريقيا ولمّح إلى معاناة أبنائها تحت نير الاستعباد الأوربي، ودافع عن أشراف العالم العربي والإنساني ودعاة الخير فيه ، من أبناء أّمته وغيرهم كتب ابن باديس مقالا يدافع فيه عن الأمير شكيب أرسلان الذي يكون سليمان باشا الباروني قد علّق على حديثه حول الوحدة العربيّة فأنشأ يقول: [قضى الأمير شكيب أيّام غربته في سويسرا محاربا للاستعمار كلّه في خطبه وكتبه ومقالاته الكثيرة جدًّا في صحف الشرق والغرب بالعربيّة والفرنسيّة وفي مجلّته (لا ناسيون أراب) المشهورة في أنحاء المعمورة وهو في ذلك كلّه يغضب المستعمرين ويكربهم ويحّز في حلاقمهم ، هذا وهو طريدهم ، وبلده في استعبادهم ، فكيف صار اليوم وقد شاب فوديه وتّحررت . إلى حدّ . بلاُده ُ ورجع كما رجع سائر المبعدين إليها ، يطلب رضا المستعمرين؟ هذا نظّن أنه غير معقول.

من هم هؤلاء الكثيرون من دعاة الإسلام الذين كانت إفريقيا تدّر عليهم لبنا خالصا؟ أجمالُ الّدين؟ أم محّمد عبده؟ أم رشيد رضا؟ أم شكيب أرسلان؟ فإن كان هو شكيب كما قد يزعم الباشا فهو واحد ، فأين الكثير؟ إنّ مثل هذه الكلمة الغالية المتجاوزة تدلّنا على أنّ سعادة الباشا لم يكن يضبط ما يقول!؟

. لقد كان شكيب منقطعا لنصرة المسلمين المستبعدين أينما كانوا ، كما تشهد بذلك آثاره التي ذكرنا والمسلمون المسبعدون أذلّة لمستبعديهم، فقيرهم قعد به العجز،وغنيّهم غلّ يديه البخل ، وهم . إلاّ قليلا . قد فّرطوا في واجبهم نحو مشاعرهم...][75]

---

75 الشهاب/ الجزء:10/ المجلّد:13/ عدد:12 ديسمبر1937/ الموافق ل:9شوال1356ه.

وبمثل هذا المنطق وهذه القوّة في المحاججة يتناول الشيخ ابن باديس قضايا أمّته الجزائرية والعربيّة ، ويذود عن دينه ولغته ومقومات شخصيّته ، متفائلا بأن هذه الأمّة قد استوضحت الطريق ، وباتت الدروب ممّهدة لأن تخوض في مستقبلها لتثبت للعالم أجمع بأنها قد استفادت من التاريخ ووعت الدّرس، [إنّنا نتيقن أن هذه الأمم الإسلاميّة استيقظت من سباتها وهبّ . للنهوض من كبوتها، وشعرت لكرامتها، وأخذت تذكر ماضيها أيّام حرّيتها واستقلالها، وهو غير بعيد في الماضي عنها، فانبعثت تعمل لفكّ قيودها ونيل حرّيتها وتبوّء منزلتها اللائقة بها كسائر الأمم التي ليست هي ت في قوميّتها وتاريخها دونها ، غير أنّها تريد أن تكون مع فرنسا، وتكون فرنسا معها كأستاذ نصوح وتلميذ بارٍّ يتبادلان الصداقة والاحترام ، ويتعاونان في الرّخاء والشدّة .

هذا . لعمر الله . هو حقيقة نفسيّة هذه الشعوب ، وهذا هو سبب ثورتها على الظلم وإبائها من استمرار الحال على ما كان..]76

ما كان ابن باديس وقد استشعر في نفسه هذه الموهبة والقدرة على الكتابية إلا أن يدرك بأنه أديب متمرّسٌ في الكتابة ، يمتلك بناصية الأدب ، ويحوز كلّ مقومات الأدب الإسلامي الهادف ، ولم يفّت على نفسهأن يسهم في المعركة الأدبيّة التي أثارها طه حسين العائد من " السوربون" بفرنسا والمعجب بخطى أستاذه ديكارت للوصول إلى الحقائق، والتي طالت شرارتها الشعر العربي ومسّت أسماء شعراء أنكر الدكتور وجودهم ، كما طالت شرارتها الإسلام ، فانبرى الأدباء والشيوخ والمفكّرون في العالم العربي والإسلامي يذودون عن أعزّ عزيز لديهم وهو قرآنهم وإسلامهم ، وأحدث هذا الكتاب الذي أصدره طه حسين فتنة بأتم معاني الكلمة حرّ:ت الساسة في البرلمانات والاحتجاجات الشعبية ، وتحّركت لها المنابر والأقلام والصحف ، وكانت الجزائر على الّرغم من ظروفها الصعبة وما فرضه الاحتلال من تقييد على الصحافة العربيّة حاضرة في المشهد فانبرى أدباؤها للرّد على مروق هذا الّرجل الذي وصل إلى حد " تكفير " البعض له والتحدّث في صحّة وسلامة عقيدته، وكان أبو اليقظان ومحمد السعيد الزاهري وغيرهم ممّن لا أعلمهم قد ثاروا على آراء الدكتور المتجرئة على الإسلام، وليس معقولا أن يتأّخر الشيخ ابن باديس عن هذه الحرب الحامية الوطيس ، فقد ردّ ابن باديس عليه عندما كتب (على هامش السيرة) : [ألّف طه حسين آخر ما ألّف كتابا أسماه (على هامش السيرة) يعني السيرة

76 الشهاب/ الجزء:09/ المجلّد:12/ عدد:نوفمبر 1937/ الموافق ل:01رمضان1356هـ

النبوية الطاهرة فملأه من الأساطير اليونانية الوثنية،وكتب ما كتب في السيرة الكريمة على منوالها فأظهرها بمظهر الخرافات الباطلة،والأساطير الخيالية،حتى ليخيِّل للقارئ أن سيرة محمّد ما هي إلا أسطورة من الأساطير.وفي هذا من الدَّس والبهت ما فيه.

ومن العجب أن قام أحد الكتاب في مجلة (الرسالة) يُطري في هذا الكتاب ويجعله الدليل القاطع على أن طه َحسين ما يزال أزهرياً رغم كل شيءٍ. فيقوم طه حسين في العددِ الثانيِّ من الرسالةِ فيصدق ذلك الكاتب فيما ادَّعاه له من رسوخِ أزهريتَّه،وديانتهِ حتى لَيَظُنَّ القارئُ للمقالين أنهما وُلِدَا في مجلسٍ َواحِدٍ. فالدُّكتور طه حسين الذي كان يقول عن الإسلام ما شاء،ولا يبالي بالمسلمين أصبح اليوم بعدما أخرج من الجامعة – يحسب للمسلمين حساباً،فلا يكتب شيئا إلا وهو يكّرر أنه مسلٌم وأنَّه يعظُّم الإسلاَم، ولكنَّ ما انطَوَ ى عليه صدُرهُ يأبى عليه إلا الظهور كما بدا في كتابه هذا الأخير!!]

وكان ابن باديس في مواقفه ممّا كتبه طه حسين وغيره عن الإسلام وتاريخ المسلمين ومقدّساتهم ينطلق من شعوره الّراسخ بأن هذه الملكة التعبيرية التي ُمنحها يجب أن تُستغّل في الذود عن شعائر وعقائد وتاريخ المسلمين من هذه الحملات المغرضة التي يقودها الجهل أو التعصّب والإنكار، وكانت له معارك أدبيّة وغارات أخرى كلما قرأ في الصحف العربية والمجلات القادمة من المشرق ما يتعارض مع الفكر الصحيح والحقيقة والواقع ، ولعّل الله يهبنا الصحة والقدرة على البحث في موضوع المعارك الأدبية التي خاضها الشيخ ابن باديس فوربّ] إنها لمجال آخر تمام يمتاز بالثراء والخصوبة.

كانت شخصيّة ابن باديس الأدبية مثالا للثراء والتّنوع الذي يعكس ثقافة الّرجل وباعه الطويل في الكتابة والإبداع ،ومن لطائف هذه الشخصيّة ان الّرجل كان شاعرا مجيدا ، ولكنه كان مقلاّ في النظم ، واكتفى في حياته بتأليف مجموعة من الأناشيد التي لا تزال حاضرة في أيامنا نترنّم بها ، ومنها ما كتب الله له أن يكون أنشودة يتغنى بها جنود جيش التحرير في الجبال والمعسكرات، ولا أحسبه إلاّ اتبع منهج غيره من العلماءِ الذين زهدوا في الشعر لانشغالهم بما رأوه مهّما وأهّم من الشعر ، ورضي الله عن الشافعي الذي قال:

ولولا الشعُر بالعلماء يُزري (*) لكنتُ اليوم أشعَر من لبيد

هكذا في هذه العجالة حاولت أن أقدّم للقراء الكرام جزءا بسيطا من حياة الشيخ ابن باديس وهو التزامه بالأدب الإسلامي فكرا وأداءا ،

وإسهاماته الأدبيّة التي لا تزال تستغيث طالبة من المختصّين أن يلتفتوا إليها لإظهار ما فيها من النفائس والقيم العاليّة.

ولا أنسى التذكير بما أراه مهمّا وهو أنّ الرّجل من خلال كتاباته ومواضيعها سواء في الخطب أو المقالات بيّن لنا نظرته وفهمه للأدب ورسالته الساميّة في حياة الفرد والجماعة ، فالأديب يضطلع برسالة نبيلة تخدم القيم والمبادئ والأخلاق والفضائل وتسعى لخير الإنسانية وتكريس قيم الخير ونوازع المحبّة بين الناس ، وتحارب الفساد والظلم والجحود والخنا ، ولا يمكن للأدب أن يبقى في دائرة تحقيق المتعة فحسب ، فلا خير في أدب لايربّي أذواقنا على استطعام الجميل من التعابير ، ولا خير في أدب لا يدعونا إلى فضيلة ، ولا يثنينا عن رذيلة !! كما أنّه لا خير في أدب لا يرسّخ فينا حبّ عقيدتنا لنعيشها فكرا ونجسّدها قولا و فعلا . ألا فليعلم أدباؤنا بأن سوء فهم معنى ورسالة ودور الأدب في حياتنا سيكون الاستعمار المقنّع الذي يصول لا لسان ويبطش بلا يد!!77



المحطّة الرابعة : تحريـرٌ بدل التّحرير

إذا نحن درسنا حياة الشيخ ابن باديس وتتبّعنا مسارها منذ بداية وعيه وانغماسه في النشاط العلمي والتعليمي إلى لحظة آخر أنفاسه التي ودّع بها الحياة الماديّة ، باعتبار الّرجل لا يزال حيّا بفكره وإنجازاته ، والذّكر للإنسان عمرٌ ثان ، فإنّنا نجد بأنّ حياته لم تكحياةً طبيعيّةً هادئةً مستقّرةً ، وإنما كانت سلسلة طويلة من الجهاد والنشاط الفكري والبدني في ممارسة التعليم والوعظ والإصلاح والسياسة ، فما كان يجد وقتا ليرتاح فيه أو يخلو إلى نفسه، فينزع عنها ذلك الاضطراب الذي كان يبعده عمّا يحتاجه العالم أو المفكّر للتأليف والتصنيف،

فقد كان صاحب رسالة عظيمة أخذت من جهده ووقته وفكره وبصره وصحّته ما يعزّ على بعضنا أن يجود به ، فلم يتفّرغ للتأليف والكتابة لانشغاله بأمور أخرى كالتدريس في المساجد والكتابة في الصحف والإشراف على أنشطة الجمعية، والتنقل لمتابعة ومراقبة سير العليم في مدارس الجمعية،وهي مهام لا يمكنها أن تتيح له من الوقت أو تبقي له

77 (****)

من الفسحة ليؤلّف إلاّ أنّ الرجل مقارنة مع هذه المهام فقد ترك من الأعمال الفكرية والأدبية والدينية عددًا معتبرًا، يكشف عن قدرة الرجل وباعه الفكريين وكان يعتبرها جزءًا من أدواته النضالية لإرساء حركة النهضة التي باشرتها الجمعيّة ، ولا أدلّ على هذه الحقيقة من أنّ انشغاله بتحرير العقول شغله عن تحرير النصوص والكتابات!!

وإذا ما تأمّلنا هذه الأعمال وأمعنّا التأمل في مضامينها فإننا نجد أنّه يغلب عليها الطابع الديني الدّعوي، ولعلّ السّر في ذلك شخصية الرجل ونشأته وطبيعة المهام التي آلى على نفسه القيام بها.ومن الأعمال التي خلّفها العلاّمة . رحمه الله . :

1- رسالة جواب عن سوء مقال (نشرها سنة 1922 م).

2- العواصم من القواصم (كتاب لابن العربي وقف على طبعه وتصحيحه في جزأين - الجزء الأول 1345 هـ/1926 م - الجزء الثاني 1946 هـ/1927 م).

3- تفسير ابن باديس (طبعه أحمد بوشمال سنة 1948 م، ثم طبعته وزارة الشؤون الدينية بالجزائر سنة 1982 م في كتاب عنوانه مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير).

4- مجالس التذكير من حديث البشير النذير (طبعته وزارة الشؤون الدينية بالجزائر سنة 1983 م).

5. العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية (طبعه تلميذه محّمد الصالح رمضان سنة 1963 م، ثم أعيد طبعه مرتين عامي 1966 م و1990 م، كما طبعه الشّيخ محّمد الحسن فضلاء سنة 1984 م).

6- رجال السلف ونساؤه(طبعه محّمد الصالح رمضان وتوفيق محّمد شاهين سنة 1966 م)

7- مبادئ الأصول (حققه الدكتور عمار طالبي ونشره سنة 1988 م.

8. آثار عبد الحميد بن باديس (وزارة الشؤون الدينية - الجزائر، 1985 - 4 أجزاء)

هذا بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من المقالات والخطب والمداخلات التي كان العلاّمة ينشرها في الصحف العربية التي كانت متداولة آنذاك ك: النّجاح والمنتقد و الشّهاب و السّنّة المحّمدية و الشّريعة المطّهرة. والصّراط السّوي و البصائر . والملاحظ أنّ هذه المقالات كانت في مجموعها انعكاسًا للواقع الاجتماعي و السياسي الجزائري أو الواقع العام للأمة العربيّة والإسلاميّة ، وكانت القضية الفلسطينية وقضايا الشعوب المقهورة المسلوبة الإرادة والحريّة من اولويات

المواضيع التي أسالت دمعه قبل حبر قلمه رحمه الله.

وكان لدينه قبل أن يكون لأمّته وكان لأمّته قبل ان يكون لشعبه، وأدّى بجدارة مهمّة الإمام العالم المصلح والمحرر الغيور المضحّي والمتفاني في سبيل أمّته .

ولا أحسب الرّجل إلا أنه كان من طينة العلماء المجاهدين الذين "يحرّرون ولا يحبّرون!!" فقد كان يعيد بناء وصياغة أمّة جديدة كادت تموت وتفقد كلّ أمل في مستقبلها وتنقضي أمجادها لتصبح نسيًا منسيًا، فقد بعثها إلى الحياة وأرسل في فكرها و وجدانها تطلّعا إلى الحياة الكريمة في ظل الحريّة التي لا يمكن أن تكون إلاّ عاملَ بناءٍ وإبداعٍ وتطوّرٍ .

وإذا كان غيره من العلماء قد ألّف الأسفار واشتغل بتحبيرها وتنقيحها فإنّ عبد الحميد كان يؤلّف العقول والأفهام الصحيحة ويوجهها توجيها فاعلاً محكمًا إلى العودة إلى مشارب الإسلام الصحيح ، ويحدوها إلى طريق الحضارة والتقدّم ويؤلّبها على كل ما من شأنه أن يحيد بها عن طريق الحريّة والحضارة ، وهو نوع من التأليف والتصنيف لا يقدر عليه إلاّ النخبة المختارة من العلماء الربّانيين الأجلاّء أصحاب الرسالات والمقاصد التي تسير على نهج الأنبياء وخطى المرسلين ، وهؤلاء قلّة قليلة مقارنة بما سواهم من العلم ، وهم النّخبة التي يختار الله إرسالها إلى الشعوب حين تتعثّر وتضطرب حياتها وتصبح عرضة للضياع والاضمحلال والزوال..

وهكذا كان ـ رحمه الله ـ مشغولا بهمّ يفوق همّ الكتابة ، مشغولا بهمّ العقول والأنفس لا همّ الحبر والأوراق ، وقد أبدع في هذا النوع من الإبداع وأجاد كما لم يفعل إلاّ قليل من أبناء أمّته.

ومضات من الفكر الباديسي :

من هم الجزائريون وماذا يريدون ؟

"نحن قوم نريد الحياة لأنفسنا كما نحبّها لغيرنا، ونكره أن ندخل الضرر على أيٍّ كان غيرنا، كما لا ترضى أن يُدخل علينا الضرر من أيّ كان غيرنا، ونحترم لغتنا ومجدنا كما نحترم لغة ومجد غيرنا، ولأننا قوم نحبّ الخير فلا نحرم منه أحدٌ ، وما فتحنا هذه المدرسة إلاّ لخدمة العلم وأهله ، وتربية النشء وتثقيفه . . "

المنتدى يتشرف بضيافـــــــة :



الأستاذ و المربي الفاضل قاسمي عبد الرحمان

قبل البدء:

في حياة كل منا شخصيات مميزة،يرتسم حضورها كمحطاتٍ مهمة في هذه الحياة، لا يمكن لنا أن نتجاهلها ، أو ننكر ، تأثيرها ، ،لأنها جزء مهم منا ،ولأنها ، أيضا مسؤولة عن صوغ جانبٍ من شخصياتِنا وتشكيلِها ، ،وأحسب أنه لا يختلف اثنان أن من هذه الشخصيات المعلمين والمربين الفاعلين المتميزين الذين تركوا فينا وإن لم نشا بصماتهم ،وألوانهم ، فارتسمت في واقعنا وهي تلازمنا ما حيينا....



ولعل كل واحد منا في مذكرته أسماءً ،خطت بحروفٍ بارزةٍ ، تجتذب الأنظار، يعتز بها ويتذكرها وبل ويستحضِرها كل حين ، لا لشيءٍ إلا لكونها مؤثرة تأثيرا متميزا دون غيرها.. إننا خلال مسار الدراسة الذي دام سنوات وسنوات مررنا بمحطات كثيرة تتنوع وتتباين في ، أهميتها وإيجابيتها ومدى ، تأثيرها ، لكن تبقى محطات معينة راسخة و ذات ، أثرٍ وحضورٍ فاعلٍ دائمٍ.... هذه المحطات أفراد استطاعوا بفضل تميزهم عن أقرانهم ممن يشاركونهم المهام والوظائف ، أن يرسخوا ، أسماءهم في ذاكرتنا ، ومن بين هذه المحطات ا لمربي الفاعل

ولا أقول المعلم فقط، لأن التعليم في نظري جزء ، أساس من الرسالة يمكن، لأي ٍ كان أن يتولاه ويبدع فيه...

تتلمذنا لكثيرين وجلسنا إلى معلمين ،وأساتذة عديدين يختلفون كفاءة وفاعلية وموهبة...كثيرين يعدون بالعشرات...لكن الأيام تمحو كثيرهم وتحجب ذكراهم ،كأن لم يكونوا ، والذين يبقون ولا تقوى الحادثات على تغييبهم في الذاكرة المربون الفاعلون الذين

تفصلهم عن غيرهم جديتهم وإخلاصهم وصدقهم المهني .

"الفاعلية" هذه الصفة التي تمنحهم النجاح والتألق والحضور لا تتأتى إلامن خلال مجموعة من المهارات والكفاءات التربوية التعليمية ، فرب معلم ننساه عند أول يوم من العطلة ،ورب آخر تنقطع العلاقة معه وتتبدد بمجرد ترك قاعة الدرس... وهؤلاء هم المربون الفاشلون الذين عجزوا أن يدمغوا نفوس المتعلمين بدمغتهم الشخصية لافتقارهم إلى كفاءة المعرفة وكفاءة التأثير التربوي...

في عيد العلم وفي ذكرى وفاة العلامة ابن باديس ، إذ نعيش هذه الأجواء العلمية المشيدة بدور العلم وأثره في النهوض والرقي والمكانة في عالم ؛ تتنافس فيه الأمم لاكتساب المعارف والتقنيات لمسابقة أو مغالبة نظيراتها ، يسعدني أن نستضيف شخصية تربوية من الطراز الرفيع ، استطاعت خلال مسارها المهني أن تثبت حضورا متميزا فاعلا ونبوغا متفردا ؛ ظهر من خلال الأداء المتميز...



يسعدني أن نستضيف الأستاذ قاسمي عبد الرحمان أستاذ اللغة العربية في بداية المسار ومدير المؤسسة التربوية في نهايته (المسار) ، هذه الشخصية التي تقرأ على ملامحها وقارا وهيبة لا يتأتيان إلا لمن تجسدت فيهم أسرار التربية الخالصة ... وهو عينة ثمينة ومتميزة لجيل من المربين الناجحين الذين أبدعوا وأنجزوا في ظروفٍ استثنائيةٍ ، وهذا سرّ تميزهم...!!

لا أريد أن أطلق العنان لنفسي في الحديث عن هذا الرجل الذي يرتسم على محياه أدب جم وتواضع بالغ وصلاح وطيبة شاخصتان ، هذه الصفات ممزوجة بنوع من الحدة التي تمنحه خصوصية حببته إلينا ماضيا أيام كنا تلاميذ وجعلتنا نتعلق به حاضرا و نعتز ونفاخر بأننا تتلمذنا على يديه و تلقينا التربية منه قبل التعليم....

أستاذي الكريم : المنتدى الأدبي يسعد باستضافتكم ، وتقديمكم للقراء كأوّل شخصيّة نلتقيها ضمن ركن (المنتدى يستضيف)..

الأستاذ : مرحبا بكم ، و يسعدني كثيرا أن تكون الاستضافة منكم وفي هذه الأجواء المشحونة بعبق المعرفة وروح التربيّة، وأتمنى أن يجد السادة القراء ، ما يروقهم ويفيدهم في حديثي...شكرا لكم...

المجلّة : هل لنا أن نمارس نوعا من الفضول لنعرف من يكون الأستاذ قاسمي عبد الرحمان؟

الأستاذ : ـ يبتسم ويقول ـ : قاسمي عبد الرحمان من مواليد : 1957/03/09م بحاسي بحبح أبٌ لتسعة أبناء ؛

الذكور:أربعة والإناث:أربعة.. و الحمد لله فلقد كرّمني بأن صرت جدّا إذ أنه لي :حفيدٌ وثلاثة أسباط.....يبتسم ثانية ويتوقف عن الحديث.

المجلّة :التربية فضاء واسع ومشوار مهنيّ يختلف عن غيره من المسارات هل لكم أن تفيدونا بإيجاز عن أهم محطات مساركم المهني؟

الأستاذ : التحقت بالقطاع أستاذا سنة1977م وبقيت في المهنة إلى غاية1983م حيث تأهلت لمنصب مستشار في التربية وبقيت كذلك إلى غاية1992م حيث رُقّيت إلى منصب مدير متوسّطة وأمضيت في المنصب تسعة عشر عاما إلى أن قرّرت التقاعد والتفرّغ...

المجلّة : هذا المسار الطويل دام ما يقارب :أربعا وثلاثين سنة وهي فترة ليست بالوجيزة...ماذا يمكن للأستاذ أن يقول عنها؟

الأستاذ : ليس من السهل أن يختصر الإنسان عقودا من العمل والتضحية والجهاد والصبر والمعاناة في بضع كلمات أو جمل...

المجلّة:العمل.التضحية.الجهاد.الصبر.المعاناة.....كلّها مؤشرات على أن ظروف العمل لم تكن مثالية أم ماذا؟

الأستاذ:إذا ما قارنا الظروف المهنيّة التي يعيشها المربّون اليوم باختلاف اختصاصاتهم ومسؤولياتهم بالتي عملنا فيها نحن لوجدنا بونا شاسعا...نحن عملنا في ظروف جدّ استثنائية : العجز في الهياكل التربوية ، غياب الوعي الاجتماعي، الضغوط المهنيّة....بينما ينعم اليوم القطاع برخاء وظروف مؤهلة لتحقيق نتائج إيجابية...

المجلّة : لكن مع الأسف الشديد يحدث العكس؟

الأستاذ : استطعنا أن نحوّل النقائص إلى محفّزات لكي نتجاوز مشكلاتنا المهنيّة، وكنا نبادر بإيجاد الحلول والمبادرة الفاعلة لتحسين ظروف العمل التربوي بدل الرجوع إلى الوصاية والاستسلام ، كما أنّ الإطار التربوي كان مضطلعا بمهامه كاملة ويمارس المهنة بنوع من المحبّة والإخلاص والشغف النيّة"...

المجلّة : هل تلمّحون إلى أنّ هذه القيم باتت غير موجودة لدى جيل اليوم من رجال التربية ؟

الأستاذ : لا ...إطلاقا...ما أردت قوله أنّنا وجدنا أنفسنا في مناخ تربوي شجّعنا على المبادرة وتحقيق الأفضل بالحدّ الأدنى من الإمكانات رغم المستوى المحدود للإطارات والفقر وانخفاض مستويات المعيشة...أمّا عن رجال ونساء القطاع اليوم فأنا أوجّه لهم كل التحيّة والتقدير وأبارك تضحياتهم ومساعيهم، وأعتبر أنّهم يشتغلون في ظروف ليست كلّها إيجابية ومثالية ، المدرسة اليوم ضحيّة الغياب الاجتماعي وعدم الفاعلية الأسرية زيادة على التشريع الذي يكبّل سلطة المسؤول التربوي ؟

المجلة : هل لنا أن نستوضح؟

الأستاذ : المدرسة تسعى اليوم إلى ترسيخ القيم التربوية السليمة النابعة من مقومات شخصيتنا العربية الإسلامية وحتى الأمازيغية في نفوس الأبناء وتجد ممانعة من هذا الجيل بسبب المؤثرات الخارجية كالإعلام وما أنتجته الطفرة الالكترونية من تقنيات وتجهيزات ، فضلا عن أهم تحدٍّ ومعيق وهو تخلّي الأسرة عن دورها التربوي في تابعة ودعم المدرسة...في زماننا كان البيت والأسرة امتدادا للمدرسة وكنت تستنشق رائحة التربية في كلّ مكان..فضلا عن التشريعات والقوانين التي تتعارض ورسالة التربية ، وقد تؤثر سلبا على استقرار المؤسسات التربوية والاستقرار النفسي للمربّين....الحقيقة أنا أتعاطف مع المدرسة الجزائرية فهي ضحيّة أطراف عديدة تختلف مستوياتها وأشكالها..وأنا أشفق على رجال التربيّة وما يجابهون من تحديات وضغوط...



المجلّة : بالعودة للحديث عن التربية...مارستم هذه المهنة لعقود...ما هو تصوّركم لها؟

الأستاذ : أستسمحكم لأقول أوّلا بأنّ التربيّة ليست مهنة !! إنّها رسالة، فالمهنة قد يفلح في أدائها كائنا من كان، لكنّ الرسالة أسمى من أن تتاح لأيّ كان ، الرسالة ليست مشاعًا ...يبتسم كعادته ويضيف:

أمّا عن الشطر الثاني من سؤالكم فأنا لا أملك تصوّرا وإنّما رأيا واعتقادا راسخا...فالتصور حكم مسبق وافتراض لشيء ما...

المجلة : يعني؟



الأستاذ:يعني أنّ التربيّة تجلّ على أن تكون مهنة ، ومن يعتقد بأن مداها يتوقّف عند الاسترزاق ، فهناك مهن أجلب للمال والرّبح وبأيسر الطرق وأدنى المشاقّ..التربيّة امتداد لرسالات الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه ؛ إنّها تابعة للنبوّة في معانيها السامية؛

الأنبياء بعثوا لخير البشرية وصلاح أحوالها والمربّون غايتهم أن ينشئوا جيلا صالحا مشبعا بالقيم والمبادئ ليعيش سعيدا ، يكون سببا في سعادة أمته.التربيّة تضحيّة وتحمّل وصبرٌ لأنّ غلتها وثمرتها لا تظهر عاجلة ، وما تغرسه في حصة أو درس قد لا يظهر إلا بعد مضيّ سنوات وسنوات.التربيّة صدق مع النشء وإخلاصٌ لأنّ الصدق مفتاح التمكين..التربيّة استقامة والتزام لأنّ النشء يقتدي بك وقد يأخذ من أفعالك وما تراه عيونه أكثر مما يأخذ من الدرس واللسان.أستاذي الفاضل التربيّة رسالة ولا يقدر عليها إلاّ من تحلّى بآدابها والتزم بشروطها ، وصبر على مشاقّها...!!

المجلّة : ألا نقرأ في هذا لخطاب نوعا من التهويل الذي يخيف أكثر مما يشجّع على الانخراط في المهنة؟

الأستاذ :لا أعتبره تهويلا وإنما توصيفًا صادقًا وموضوعيًّا وعمليًّا للرسالة التي تشرّف بها سيد الخلق صلى الله عليه وسلّم عندما قال : "إنّما بُعثتُ معلّمًا"ومن أراد التربيّة فعليه أن يكون في مستواها ، ينبغي أن يعلم أبنائي وبناتي أنّ ما تتطلبه مهنة الموظف أو الإداري في أي قطاع كان قد لا تتساوى مع الكفايات الضرورية للعمل والوظيفة التربويّة...وما نلمسه اليوم في واقعنا تربيتنا وأداء مدارسنا هو نتيجة نظرة خاطئة وأسلوب غير صحيحين في التأهيل للمناصب التربوية...

المجلّة : نفهم من هذا أنّكم لستم راضين عن الأداء التربوي لمنظومتنا؟

الأستاذ :ليس من اليسر أن نحاكم التربيّة وإن كان من يسيرا وممكنا أن نكيل لها الاتهامات ونرصد نقائصَها وعيوبها... التربيّة جزء من الحياة الاجتماعية وما يؤثر على القطاعات الأخرى يؤثر بالضرورة عليها...الإشكال المطروح اليوم هو تردّي مستويات التحصيل وانتشار ظواهر التسرب المدرسي والعنف وتدنّي الأخلاق والاضطرابات...الخ يعتقد الكثيرون أنّ الخلل في المؤسسات والإطارات والتوظيف وغير ذلك من الحلول التي أعتبرها شماعات لتبرير العجز في إدارة وتسيير القطاع...



أثناء عملية التكوين لمنصب مدير

مشكلتنا اليوم أننا توجّهنا مكرهين إلى الاهتمام بالهياكل والأرقام المهولة لعددها وعدد موظفي القطاع وأهملنا الغاية والمطلوب من هذه الإمكانات.التربيّة عندنا مشكلتها في غياب الرّوح التربوية داخل النفوس قبل الهياكل.



نجحت دول كثيرة شقيقة أو صديقة في أنظمتها التربوية بحدٍّ أدنى مما هو موجود لدينا، بل وسبقتنا كثيرا.لأنّها راهنت على

العامل البشري قبل المادّي..التربية يصنعها الإنسان ولا تصنعها الهياكل..

المجلّة : معنى ذلك أنكم تدعون لإعادة النظر في تكوين المربّين؟

الأستاذ : بالفعل...هو ذاك..نحتاج إلى أن نراهن على الكفاءة التربوية من خلال انتقاء أفضل مَنْ لدينا مِن الطلبة لمتخرّجين وتكوينهم تكوينًا علميًّا صحيحًا ممنهجًا اعتمادا على برامج معدّة بإحكام وبإشراف مختصّين أكفاء..لا نحتاج إلى أن نستورد مناهج ومقرّرات حرفيا، وانما يكفينا أن نقتبس ما ينفعنا ونردّ ما لا يتناسب مع قيمنا ومبادئنا...ومع ذلك أنا متفائل لأنّ المدرسة الجزائرية وإن تعثّرت فثقتي أنّ من بين بنيها رجال مخلصون أوفياء لوطنهم وتاريخ أمتهم ، ولن يدعوها تتهاوى...

المجلّة : نحيي بعد أيام يوم العلم الموافق لذكرى وفاة العلامة ابن باديس..ما الصورة التي نقلتها لتلاميذك عن الرجل خلال مسيرة الـ٣٤ عاما التي مضت ؟

الأستاذ: ابن باديس رحمه الله محطّة فارقة في تاريخ الأمّة الجزائرية وهو الرّجل الذي استطاع أن يحوّل وجهة هذا الشعب من طريق الزوال والفرنسة والتمسيح إلى وجهة الهويّة الصحيحة...فضل الرجل على الأمة كبير وأثره في تاريخها لا ينكره إلا الجاحدون أو الجاهلون.غير أنّ الرّجل تنكّر له الكثير..ولا أشكّ أنّنا أنصفناه ووفيّناه حقّه لكن التاريخ سينصفه حتما . كما أعتقد أن أمّة أنجبت ابن باديس لن تعجز عن إنجاب نظائر له...

المجلّة : بعد هذا الحديث المسهب عن التربيّة...هل



لكم أن تذكروا لنا الشخصيات الثلاث المهمّة في مساركم وحياتكم؟

الأستاذ : سؤالٌ محرجٌ ..!! الحقيقة أنّ كل من عرفتهم مهمّون في حياتي لأنّهم جزء من صناعة المواقف التي عشتها معهم

وإذا كنت تقصد الأشخاص الذين تركوا أثرهم فيّ ؛ فأولهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم الذي تعلّمت من هديه ونوره ما جعلني أعيش حياتي المهنية والاجتماعية مستقرًا هانئًا مطمئنًّا مستحضرا سيرته في كلّ حين ولا أنكر دور أبي رحمه الله تعالى إذ علّمني بأميّته وفطرته وطيبته وصدقه وتواضعه أعظمَ الدروس ثمّ والدتي رحمها الله التي غرَسَت فيَّ صغيرًا أعذب المشاعر وأصدق العواطف وأحاطتني بما أحتاج من الرعاية بعد وفاة الوالد ...

المجلّة : أستاذي الكريم الحديثُ الشيق منبعه الفكر الصحيح والتجربة الصادقة ...ماذا يمكنك أن تقول لنا وللقراء في آخر هذا اللقاء الذي لا نريد نهاية له؟

الأستاذ : أثني على جهودكم وأبارك مساعيكم الرائدة في تنشيط الحركة الأدبيّة وتوجيهها بما يحقّق الفائدة ، وأتمنى لكم النجاح والتوفيق..مجدّدا شكري لكم على الاستضافة والسلام عليكم...

شخصية العدد



الشاعر الأستاذ عيسى قارف

شاعر يبدع بنكهة و إيقاع متفرّدين ..

لو جاز لي ان اختار للشعر من البشر ايقونة لكانت قارف عيسى....ولو نطق الشعر لقال :قارف وجعي وشقوتي وسعادتي وابتهاجي....ولو سالتكم عن الشاعر الموبوء باللعنة السرمدية للقوافي والترانيم لما وجدتم اسما في هذه القوائم الحبلى بالاسماء والصور غير هذا الشاب الوسيم الحيي الذي تربع الشعر في وجدانه ولعلنه مرتعا له....

إنه الشاعر قارف عيسى ذلكم الفتى الوادع الذي يرسم حياته وحركاته اوزانا وإيقاعات ، لا يداخلها اضطراب ولا يدانيها اختلال...شخصية هادئة رزينة وقورة تضفي هيبة مميزة ، لم يكسر جمودها غير شاعرية متاججة ، اهلته ليكون احد انجب الشعراء واكثرهم حضورا كيفا لا كما...

وإذا كان الشعراء الشباب يتنافسون اليوم في صراع محموم ليكون لاحدهم اكثر من ديوان في العام واريد من قصيدتين في الاسبوع ، فعيسى تعهد بماء الشعر الخالص... فلا يكتب إلا عندما ياذن السلطان.. واي سلطان ؟ إنه سلطان الشاعرية المتدفقة ....

كغيره من الاقران داعبه ملاك الشعر في سن مبكرة ، فكان ان تمكن منه ، ساعتها انشا الفتى الحالم ينظم شعرا يفرغ فيه اللواعج والافكار وهو يرنو إلى اليوم الذي يصبح فيه الشاعر الموهوب....

ولد عيسى قارف في26 من اوت1972 بحاسي بحبح وفيها تمرس في العربية و لعلن البيعة لها عاشقا والها ، ولم يكتم هواها . بل اذاعه في كل حين شعرا جميلا يداعب الاسماع ويدغدغ القلوب واحيانا يدمي الضمائر...

ومع الايام والتقدم في مسار الدراسة ازداد الوله وانتقل إلى مراحل متقدمة في علاقته بالشعر بل وفي الشاعرية ايضا ، فاكتسب مما قراومما سمع ومما خربش ودندن مهارات وادوات الشاعر المحترف.... ومما لعلن ذلك ولا فاخر وطاول ، وبما ان للشعر حرقة عذبة ، فقد كان يتلذذ بهذا الالم فيصوغه نشوة بعد نشوة ويرسمه سلالا من المفردات التي تحمل البغض والحب والإخلاص والغدر والسعادة والشقاء.... فكان شاعرا يلتم دلالات الكلمة...يكتب للإنسان الموجوع بالحب والشوق تارة ، والخوف والخيبة تارة اخرى ، والوطن والمرة وكل الاشياء...

وإذا كان غيره تسربل بالالقاب وتباهى مزهوا بها ، فإنه لم يفعل لانه شاعر من طينة الملهمين لا الصنعة المتبجحين... في ظرف قصير وفي مرحلة متقدمة من حياته فرض نفسه شاعرا يدعى إلى المحافل ، ويشارك في المهرجانات ، ويمثل الشعر الجزائري بكل ثقة وثبات ، وله ان يكون كذلك..

وبالإضافة إلى شاعريته ، يظهر عيسى قارف في المشهد الثقافي عنصرا فاعلا ومؤثرا ، فهو يخالف الصورة النمطية المتداولة عن الشعراء وانكفائهم على انفسهم وغرقهم في بوهيميتهم وعزلتهم الإبداعية ، حيث يعرف بنشاطه الثقافي والجمعوي الفاعل فهو :

مؤسس للمجلس البلدي للثقافة بحاسي بحبح و احد مؤسسي الملتقى الوطني للإبداع الادبي والفني منذ 1996 ، كما انه عضو مؤسس للملتقى الوطني للشعر الشعبي بحاسي بحبح ، وعضو عامل باتحاد الكتاب الجزائريين منذ 1991(انسحب في المؤتمر الاخير- نوفمبر - 2009) – و هو عضو مجلس وطني-سابقا-

بالجمعية الثقافية الجاحظية ، كما شغل نائبا لفرع اتحاد الكتاب بالجلفة سنة1995 و1996 و

هو ايضا عضو بفرعه الجهوي ، فضلا عن تاسيسه بمعية بعض المبدعين الجزائريين الرابطة المعنوية للادباء الجزائر كما شارك في الكثير من الملتقيات الادبية والثقافية بالجزائر وخارجها منها الايام الثقافية الجزائرية بالإمارات العربية المتحدة الشارقة نوفمبر 2007 وإقامة الإبداع الثانية بالجزائر2008 وشارك فيها بنص مشترك مع الشاعر اليمني فتحي ابو النصر .كما دعي من قبل الامير متعب بن عبد الله ضمن كبار الضيوف مهرجان الجنادرية بالمملكة العربية السعودية 2013 . وكرمته وزيرة الثقافة بمعية الشعراء العرب المشاركين في إقامة الإبداع .كما كرمته مديرية الثقافة بالجلفة سنة2002 وهذا بعد تشريفه للجزائر والمغرب العربي بالجائزة الاولى في الكويت /د.سعاد الصباح..

يعرف الاستاذ قارف عيسى ايضا بكونه تربويا من الطراز الاول فهو يشتغل بالقطاع التربوي مدرسا للغة العربية ولا يزال بهذا القطاع لكن في منصب مدير مدرسة ابتدائية..ويشهد له الزملاء بالانضباط والتميز المهني ، وكيف لا يكون وبين جوانحه طهر الشاعرية الاولى...؟!

كلل مساره الشعري بعديد الجوائز والتكريمات ، ولا شك ان صوتا شعريا متالقا يغيب عن الظفر بعديد الجوائز التقديرية وهوما حدث بالفعل فقد توج عيسى بعديد الجوائز ومنها:

- الجائزة المغاربية للشعر "مفدي زكرياء" .
- جائزة الملتقى الدولي عبد الحميد بن هدوقة
- جائزة د/سعاد الصباح "اول شاعر من المغرب العربي يفوز بالجائزة الاولى " - الكويت 2001 .

ـجائزة اتحاد الكتاب الجزائريين 2002
ـجائزة ثقافة وفنون سنة 2004 .
. تكريم خاص بمعية الفنان الكبير مارسيل خليفة .
-جائزة وزارة الثقافة 1998.

ـ جائزة جمهور قراء الصالون الوطني الاول لشعر الشباب بتيهرت(المعصومة) 2002 . . جائزة الشعر لليوم العالمي للمعلم ببومرداس 2001...

هذا المسار الحافل بالنجاح والتالق عنوانه عيسى قارف ابن مدينة حاسي بحبح هذه الربوة الحبلى بالعبقرية والنبوغ ، المدينة التي سجلت حضورها في كل المسابقات الوطنية ، ونالت النخبة من بنيها الجوائز وحظوا بالمراتب الرائدة...

واخيرا وبعد هذا العرض السريع عن جزء من مسيرة شخصية العدد لا بلد ان تكون تحلية اللقاء هذين المقطعين الشعريين للشاعر عيسى الذي نتمنى له التالق والإبداع الدائمين.

من قصيدة : إِشربْ تَرَ، واشْتَبِهْ تنتبِهْ.

مرت ٱمرأةٌ في متاهِ اللّغاتِ على بعد سبّابة من مسائي
بحيثُ تلامس أنفاسها ثلج قلبي
تذكّرتُ هذا الفتى اليتداعى من الغيب، هذا الدم اليتأرجحُ
فوق الحديث... لم يحِنِ الوقتُ كي أستعيد دمي...
حيواني الوسيم الذي نسيتهُ الروايةُ في الكهفِ
نملي الّذي كان في الكلبِ قبل الحكايةِ، أي قبل تزّاوُر الشَّمسُ ؟!
مليون عام أخالف طبعي وأعبد هذا المسّمى الرضى راضيـًا بالطّحالب
لا شيء يبرقُ في العقل لا عقل للدّوران البريدُ يطلُّ
وينزلق العام واقف منزلقٌ والبطاقاتُ "عامٌ سعيدٌ" وكلُّ سنه...
وأنا تحتنا!
هلْ شربْتُ شعيرًا عسى أستعيدُ صهيلي
فهذا النّبيدُ الأُوروبيُّ لا يصلحُ الصَّدأُ السّفليَّ
توارثْتُ جيلاً من النّمل يرمي الفتاوى كما المحصناتِ..

الهوى والبنات...
تذكّرتُ ما قد يناسب طبعي، الجمالَ المميتَ
بدأت أُعيدُ فتايَ أَسُبُّ الرِّضى لا أدور مع السّاعة الحَا... ئريّةِ
أربو قليلاً على السّارد المركزيّ.. يفاجئني:
-دُلَّ نفسك عن واحد لم يزل بشرًا دُلَّ "طوفان نوح" على ما تبقَّى
ولا تتخذْ سفنًا..دلّ نفسك عنْ ساجد لم يزل ساجداً
دلّ هذا الحطام على النارِ، هذي القرى عن قراري
أقرّرُ لا يسلمُ الجسَدُ الرُّوحُ تعلقُ إن وُجِدَتْ
والصّلوات إن وجدت.. والكتبْ...
والْعَن الصُّوف والمتَصِوف والنارَ... وأشعل سجارة!! ...
وغَنَّ البذاءة، لستَ المدثّر فارم ثيابك في نهر غاوية
وافتعلْ جسدًا وانتعل بلدًا وامضِ لا عدلَ يرجعك الآن
واشرب تَرَ... واشْتَبِهْ تَنْتَبِهْ.. لا يقينْ !!! قبل أنْ يسرقُوا منْكَ هذا الحنينْ!
قبل أن (...) لا حياء لهم يفعلوا... فانتسب وارتحل
من"عمورة" أو من "سدوم" ولا تلتفت قبل أن......
لا حياء لهم، ربما (...) مثلما (...)وتفقّدْ رجولتك الآنَ
أوقد يكون (...) ولا تبتئس إن حصلْ... واحتملْ..
فالبلادُ إذا أُلبسَتْ جلدَ قطّتها ا ًكلت جروهَا

من قصيدة : الحـــادي

إشرب تر
يا حاديَ الجُلاّسِ،

ماء اليقينِ
على شفاهِ الكاسِ!!
وامزجْ مزاجي
عاريًا
متناهيًا
في اللاوجُود
ومطلقَ الإحساسِ

قطّرْ على الرُّوح الغريبةِ نُورها
وأذِبْ عليها
حرقةَ الأنفاسِ،،
وادخل صلاةَ "أبي نواسٍ"
واضحًا، حدَّ التَّماهي

في صلاةِ "نواسِ....
اِعطِ الجُنون حياتهُ
واخلدْ هنا، مُتفرّدًا
يا خالق الأجناسِ...

الظنُّ أجلي للحقيقةِ
فاشتبه .. ثمّ انتبهْ
لعمائم الحرّاسِ!!
الشاهدين على النَّوايا والخطايا الواقِفينَ
على رقابِ النّاسِ...

بقي أن نشير إلى أنّه قد صدر لشاعرنا المتألّق عيسى قارف مجموعة من الدواوين أهمّها:
1- مهب الجسم مهب الروح .عن الدار العربية للعلوم بلبنان.
2. منشورات الإختلاف الجزائرية و مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بالإمارات العربية المتحدة 2010.
-النخيل تبرأ من تمره عن الجاحظية 1998.
"والآن..." عن دار سعاد الصباح الكويتية .الكويت 2002 والآن ..في الطبعة الثانية عن دار أسامة ،الجزائر 2008 . وديوان : "اشرب تر...واشتبه تنتبه " عن وزارة الثقافة الجزائرية 2007.. –
ـ الأعمال الشعرية غير الكاملة –دار أسامة – الجزائر 2013.



أقلام متمرّدة

الأول :



مفاهيم في حقل شائك..

كثيرا ما نلوك مفاهيم،ونردد مصطلحات من باب التنظير المجاني الذي يتصيد أدنى سانحة للمباهاة دون أدنى دراية حتى بأبجديات الثقافة العامة من ذلك أن يكون من ينبري للخطاب واعيا على الأقل للفرق بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي.فما بالكم إذا كان المصطلح مأخوذا من لغة أخرى ،ومُنتزعا من ثقافة أجنبية، لا يمتلك الفرد فيها أدنى كفاءة ؟ ولا يتحدث عنها إلا من خلال ما كُتب عنها من ترجمات ودراسات ونقول غريبة كل الغرابة عن بيئتنا الثقافية؟

بين المثقف والكاتب والمبدع بون شاسع،ولكني غالبا ما يخلط بعض المحسوبين على الساحة الثقافية،وحت... فهم الثقافي بين دلالات هذه المفاهيم..ليس بالضرورة أن يكون المثقف مبدعا أو كاتبا،كما أنه ليس بالضرورة أيضا أن يكون المبدع مثقفا..وقد يكون أحدنا كاتبا وليس مبدعا وإن كانت الكتابة بالضرورة تستدعي فكرا

أ: غانم حميد

معينا وثقافة ما. الثقافة هي أن نعرف كيف نحيا،فهي في عصر العولمة لم تعد تلك الصورة النمطية التي تتمظهر في استظهار منظومات من المعارف النظرية في العلوم الإنسانـــــــــــية تحديدا كالأدب،والدين،والفلسفة،وعلم النفس والسياسة وغيرها.

الثقافة في زمننا الراهن كفاءات حياتية،تستهدف تكيف الإنسان المعاصر مع مشكلات الحياة،فلم تعد هناك ثقافة عامة بالمعنى الفج الذي كنا نختبر فيه صغارا من قبيل مسابقات ما بين الثانويات منذ سنوات،بل أخذت طابع التخصص،فهناك الثقافة البيئية،والثقافة المرورية،و الثقافة الاستهلاكية، والثقافة الصحية،والثقافة السياسية ،وحتى الثقافة الجنسية،وما إلى ذلك من الثقافات.

وكما يقول المثل الأجنبي :(من لا يتقدم يتأخر)،فإن من سمات الفرد في المجتمع المتحضر أنه في حالة تثقف ذاتي مستمر،وإن كان حظه من التعليم محدودا،قد يتدنى إلى مستوى الأمية،في حين أننا نجد خواء ثقافيا يواكب حظوظا معتبرة من التعليم...وعلى هامش هذه المقاربات يتراءى الإبداع حالة تفر من الخضوع لأجرأة التناول،ودقة التنظير.

الثاني :

أما آن الوقت لتغيير الوقت؟

بين الشتاء والصيف قصة جذب أزلية،تنوعت فصولها بتدبير من المشيئة العليّة،فلكل منهما سماته المناخية من قر يحد من مساحة الحركة في الحياة،ويحمل الناس على لزوم مواطن الدفء إلى حر تضيق عنه جلودهم،فيلوذون بالمكيفات لا يكادون يبرحونها إلا لضرورة،أو ينتجعون منتزهات يتخضخضون فيها عوما وغطسا.

ولما كانت هاتان الظاهرتان وعاء لحركة الحياة،ومحورا تدور حوله أحداث الزمان وأفاعيله بالناس فقد امتن الله على قريش في القرآن الكريم بأن هيأ لهم أسباب رحلة الشتاء إلى اليمن حيث الدفء،ورحلة الصيف إلى الشام حيث المناخ المنعش،وألهمهم سلوك أحسن المسالك وأكثرها أمنا لبلوغ محجتهم،فقال سبحانه تعالى:(لإيـــلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ....) ولكن إلى أي مدى ترانا نحسن استغلال الزمن في هذين الفصلين اللذين يبلغ في أحدهما أحد طرفي اليوم أقصى طول ممكن له؟

من المتعارف عليه أن النهار يبلغ أقصى طول ممكن له صيفا،وأن الشتاء يحدث فيه خلاف ذلك، وأن في تعاقب الليل والنهار أعمالا يؤديها الفرد منها ما يتصل بعلاقته بربه كالعبادات التوقيفية،أو أعمال الحياة اليومية كممارسة الوظيفة والتجارة والسفر وما إلى ذلك. انكماش الليل والنهار،وامتداد أحدهما على حساب الآخر شتاء وصيفا مع ثبات التوقيت الكرونولوجي الرسمي الذي يحدد ساعات العمل ابتداء من الثامنة صباحا إلى غاية الخامسة مساء نظام تجاوزته ضرورات الحياة المتسارعة فلم يعد يفي بالغرض سواء على مستوى سير مؤسسات الدولة أو قدرة الأفراد على استغلال أفضل وأمثل للزمن.وهاهنا وفي بلد كالجزائر تستحيل جغرافيته الشاسعة إلى قارة بتضاريس متباينة وأقاليم مناخية متناقضة باتت مراجعة التوقيت أمرا يكتسي أهمية بالغة،بحيث تتأكد الحاجة الماسة إلى توقيت شتوي وآخر صيفي يساير طلوع الشمس امتدادا وانحسارا بزيادة ساعة أو إنقاصها ،الأمر الذي يبدو أكثر ملاءمة لتلاميذ المدارس الذين يخرجون للدراسة في

جنح الظلام شتاء أو يجرون امتحانات نهاية السنة في وقت يشتد فيه الحر كما هو الحال في الجنوب الكبير لا سيما وأن المكيفات المدرسية أضحت هياكل لا روح فيها.

والحال نفسه ينطبق على من يقصد العاصمة من مدن الجزائر العميقة حيث يتوجب عليه أن يخرج قبل صلاة الفجر بساعة أو أكثر ليصل في حدود منتصف النهار،حيث نهاية الدوم الصباحي.

فهل حان الوقت لتغيير الوقت؟[78]

---

[78] رجل تربية ومثقف فاعل.

تربويـــات

مدارسٌ غريبةٌ ومناهجُ عجيبة

بقلم : محمد حسني

إذا ذكرت «المدرسة»، تداعى للتو على أذهاننا، هذا المشهد..طلاّب يذهبون إلى فصولهم الدراسية، ليجلسوا في مواجهة السبورة، ويحصلوا على ما هو مقرر عليهم، في منهجهم الدراسي، من خلال المعلّم، وعقب انتهاء اليوم الدراسي، يعودون إلى منازلهم، مكلّـّفين بعمل بعض الواجبات الدراسية، هكذا هو التصوّر السائد لدى جل الناس.وفي إطار المخطط ا لتنظيمي، فإن هذه المدارس تسعى إلى تحقيق التعليم الرسمي، أو ما يسميه البعض التعليم النظامي، الذي يعرّفه المركز الأوروبي للتدريب وتطوير التعليم، بأنه «تعليم يقدّم من قبل مؤسسات تربوية وتعليمية، في إطار مناهج محددة، وتشرف عليه الدولة، ويكون منظمًا من حيث أهداف التعلّم، أو وقته، أو دعمه، وينتج عنه الحصول على شهادة معتمدة ومعترف بها، ويكون التعلّم مقصودًا من منظور المتعلّم»، هذا هو التعليم النظامي السائد في كل دول العالم.إلاّ أن ثمة نوعًا آخر من التعليم، تعترف به حتى الآن 23 دولة حول العالم، وهو التعليم غير النظامي، الذي يسمح بإقامة مدارس غير تقليدية، وتقديم مناهج غير مألوفة.



فماذا عن التعليم غير النظامي؟

وما هي غرائب مدارسه، وعجائب مناهجه؟

جدير بالإشارة، بادئ ذي بدء، فإنه ليس من تعريف موحّد للتعليم غير النظامي، فثمة من يعرّفه بأنه «نوع منفصل من التعلّم، يقع بين التعلم الرسمي وغير الرسمي، وهو ليس منظمًا من حيث أهداف التعلم، أو وقته، أو دعمه، ولا ينتج عنه غالبًا الحصول على شهادة تخرّج، وفي قليل من الأحيان يكون مقصودًا من منظور المتعلّم»، ويعرّفه ليفنجستون بأنه «التعلّم الذي يوجّه فيه المعلمون والمرشدون المتعلمين، دون الإشارة إلى نتائج تعلّم منظّمة، ويتمثل في اكتساب المعرفة، دون إطار إلزامي، مثل تعلّم مهارات وظيفة جديدة»..وبحسب تعريف اليونسكو، فإنه «أي نشاط منخرط في الزمان، ولا يدخل بالتحديد في إطار العمل التربوي النظامي».

وفي الوقت الحاضر، هناك 23دولة تعترف بالتعليم غير النظامي، بعضها تطبـّقه ضمن برامج كاملة، وبعضها تطبقه ضمن برامج جزئية، وبعضها تطبقه ضمن برامج محدودة، وبعضها ليس لديها برامج مطبقة حتى الآن، رغم اعترافها به، وهذه الدول هي:

أوّلاً / دول لديها برامج كاملة في التعليم غير النظامي (أستراليا ـ كندا ـ الدنمارك ـ النرويج).
ثانيًا / دول لديها برامج جزئية (بلجيكا ـ ألمانيا ـ أيرلندا ـ المكسيك ـ هولندا ـ جنوب إفريقيا ـ المملكة المتحدة).
ثالثًا/دول لديها برامج محدودة (النمسا ـ جمهورية التشيك ـ المجر ـ إيسلاند ـ إيطاليا ـ كوريا الجنوبية ـ مالطة ـ إسبانيا ـ سلوفينيا ـ سويسرا) .
رابعًا / دول لا يوجد لديها برامج (تشيلي ـ اليونان) .
وكانت هذه الدول قد اتجهت نحو الاعتراف بالتعليم غير النظامي، والسعي إلى تطبيقه استنادًا إلى مجموعة من العوامل هي :
«تنوّع الحاجات الفردية للتعلّم، في مجتمع سريع التطوّر».
«المشاكل غير المحلولة المتعلّقة بالأميّة، وعدم التحاق الأطفال بالمدارس».
«الحدود اللازمة لطبيعة النظام التربوي النظامي، في كيفية تلقين التعليم».
«اللجوء المتزايد لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات».

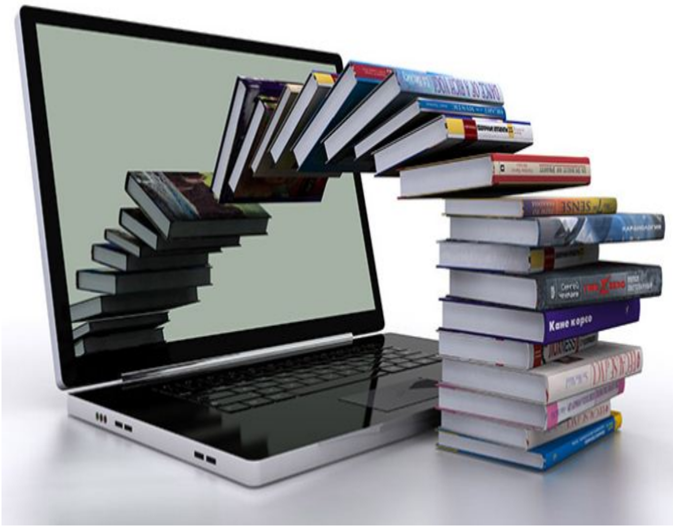


وبحكم طبيعته، فإن التعليم غير النظامي قادر على تلبية مختلف احتياجات التدرّب للأطفال ما دون سن الالتحاق بالمدرسة، والفتيان والفتيات غير الملتحقين بالمدارس، والشباب والشابات في مجتمع لا يتوقّف عن التطوير.. ويتّخذ التعليم غير النظامي أشكالاً متنوّعة منها:
بنية تربوية للأطفال الصغار .
مراكز تربوية جماعية، في المناطق الريفية والحضرية.
دروس محو الأمية للبالغين.
تدريب تقني ومهني في مكان العمل.
التربية عن بعد، بالنسبة للسكّان المقيمين في مناطق نائية.
التربية في مجال الصحة العامة.

التربية المدنيّة والتدريب المستمر للبالغين والشباب في البلدان الصناعية، كما في البلدان النامية. والطرق التي يلقّن بموجبها التعليم غير النظامي، والمجالات التي يتم التطرّق إليها، شديدة التنوّع، غير أن عددًا من العناصر الأساسية تبقى مشتركة،وهي :

أخذ الاحتياجات في الاعتبار.

المواءمة مع السياق.



المرونة في المضمون، وفي الدوام، ومكان التعليم.

وإذا كانت ثمة مدارس غريبة ومناهج عجيبة، كما سنبيّن، فإن من الأمثلة والنماذج الأكثر شيوعًا للتعليم غير النظامي:

ورش العمل.

الدورات المجتمعية.

الدورات القائمة على الاهتمامات.

الدورات قصيرة المدى.

الدورات بنظام المؤتمرات.

برامج تعلّم السباحة للأطفال الصغار.

برامج الرياضات القائمة علي الجماعات.

البرامج التي تضعها منظّمات، مثل الكشافة الشباب، والكشافة الفتيات.

برامج التنمية المهنية المستمرة، التي من شأنها زيادة مهارات المتعلّم، ومعارفه، والتمتّع بالمزايا النفسية المرتبطة بزيادة حب مادة دراسية ما، أو زيادة الشغف بالتعلّم.

مدارس غريـبة

وفي بعض مناطق العالم، توجد مدارس ليست كالمدارس التي نعرفها، بل تتسم بالغرابة، من حيث البنية والتصميم الهيكلي، والموقع، والنظام الإداري والتربوي، أو المعدات والتجهيزات التي تحتويها، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- مدرسة المستقبل في فيلادلفيا (Future Philadelphia School Of the)،

وهي من المدارس الأمريكية الحديثة، التي تتميّز بمجموعة من الخصائص الفريدة..تم افتتاحها في عام 2006م، كل ما فيها يعمل بتقنية الديجيتال المتقدّمة، طلاّبها لا يستخدمون الكتب الورقية على الإطلاق، حيث يعتمدون في دراستهم بشكل كامل على الحهيب بمختلف أنواعها، ويلقي المعلّمون محاضراتهم باستخدام شاشات عرض ذكية، عوضـًا عن السبّورات التقليدية، ولحفظ أدواتهم يستخدم الطلاب خزانات ذكية، يتم فتحها بكروت ممغنطة.. وبحسب تقرير حول تجربة هذه المدرسة، فإنها «كانت حافزًا قويـًا للطلاب للحصول على أعلى الدرجات في الرياضيات والعلوم والقراءة، وجل طلابها يتمتعون بكفاءة عالية في التفكير العلمي القائم على البحث والتجريب».

- مدرسة الكهف (Dongzhong)،وهي مدرسة ابتدائية غريبة وفريدة من نوعها،تقع في منطقة مياو الجبلية، بمقاطعة قويتشو من أعمال الصين، وهذه المدرسة التي تم افتتاحها عام 1984م، مقامة بالجهود الذاتية لسكّان المنطقة النائية، ذات النتوءات التضاريسية الصعبة، وقد تم إنشاؤها داخل كهف صخري،ويتكون طاقم المعلّمين فيها من ثمانية معلمين فقط، ويدرس

فيها186طالبـًا وبرغم بساطتها، وقلة تجهيزاتها، إلاّ أن التلاميذ يأتون إليها من مسافات بعيدة، ومناطق شديدة الوعورة، وقد يستمر بعضهم في السير إليها نحو 3 ساعات طلبـًا للعلم.

ـ مدارس القوارب، وهي ظاهرة تنفرد بها بنجلاديش، التي تتعرّض للفيضان مرتين كل عام، ومن ثم يصعب على الناس في مناطق الفيضان الحصول على المياه النظيفة والكهرباء، ويتوقف التلاميذ عن الذهاب إلى مدارسهم التي تغرقها مياه الفيضان.. وفكرة هذه المدارس العائمة، من ابتكار وتنفيذ إحدى المؤسسات غير الحكومية وغير الربحية، وتدعى مؤسسة (Shidhulai Swanirvar Sangstha) التي تقوم بتزويد السكان في المناطق المتضررة بأكثر من 100 قارب للعمل كمدارس تطفو على سطح الماء.. جدير بالإشارة أن هذه المدارس العائمة مجهّزة بحيث تعمل بالطاقة الشمسية،وتحتوي على قاعات دراسية مناسبة، ومزودة بخدمة الإنترنت، وفي كل قارب ثمة مكتبة مدرسية..ولهذه المدارس العائمة موانئ آمنة، يتجمّع عندها الطلاب في حالة الفيضانات..ومنذ انطلاقها في عام 2002م، استفاد من هذه المدارس أكثر من70 ألف طالب، وتكمن أهمية هذه التجربة الفريدة في أنها «تتيح الفرصة أمام الطلاب لمواصلة تعليمهم، رغم الظروف الطبيعية القاسية، وهي لا تقدّم خدماتها لطلاب التعليم الأساسي فقط، بل أيضـًا لرياض الأطفال، حيث تقوم بالتقاط الطلاب من على الأرصفة في جميع الأيام، وتوصيلهم إلى أقرب مكان آمن لمنازلهم، في وقت تكون جميع الأعمال التجارية مغلقة».

ـ مدرسة بروكلين الحرة، وهي مدرسة أمريكية حديثة، لا توجد بها مناهج كتلك التي نعرفها، وهي مقسّمة إلى مرحلتين: الأولى أو (الدنيا) حيث يتم قبول الأطفال من عمر 4 إلى 10 سنوات، والثانية أو (العليا)، وهي تقبل الأطفال عن عمر11إلى 18 سنة، ومسموح للطلاب الذين يلتحقون بها، اختيار الفصول الدراسية، التي يرغبون في الولوج إليها، كما أنه مسموح لهم بالبقاء في المدرسة، أو مغادرتها إذا أرادوا، والقواعد الأساسية التي تسير عليها المدرسة يحددها الطلاب.. قد يقرر طالب الانخراط في دراسات مستقلّة وحده، وهذا من حقه، في إطار قوانين المدرسة، وأيضـًا من حقه أن يقرر أخذ قيلولة، أو يلعب ويلهو. وثمة صفوف مختلفة في المدرسة، مثل صف الأسلاك، حيث يشاهد الطلاب برامج تليفزيونية عن الأسلاك، ويتناقشون حولها، بينما يوجد صف آخر لمناقشة شؤون المطاعم في المدينة، وسبل الاختيار الأمثل للطلاب لكي يتناولوا طعامهم، وفي كل أسبوع يقام اجتماع موسّع لتقييم سير المدرسة، والنظر في شروط ومعايير قبول الطلاب الجدد في المدرسة..وفي هذه المدرسة، لا توجد اختبارات، ولا واجبات منزلية، ولا حتى درجات لأعمال الطالب، ويحق للطالب الدعوة إلى عقد اجتماع ليناقش أفكاره مع الطلاب الآخرين، بمشاركة الأساتذة، والهدف من هذه المدرسة أن يجد كل طالب طريقه بنفسه دون أي مساعدة.

ـ مدارس منصّة القطار، تعود فكرتها إلى معلّمة هندية، تدعى أنديرا جيت كورانا، التي لفت انتباهها أثناء ذهابها إلى العمل، وإيابها إلى منزلها، حيث تقيم في ولاية أوريسا، وجود عدد كبير من الأطفال المشرّدين، الذين يتسولون المال في القطارات، ولا يرعاهم أحد..وهداها تفكيرها إلى السعي لإقامة مدرسة تجمعهم في مكانهم، بعد أن فشلت محاولات دفعهم للذهاب إلى مدرسة تقليدية، وقد طبّقت الفكرة على أرض الواقع عام 1985م، بدعم ومساعدة من منظّمات المجتمع المدني غير الربحية، وذات الصلة بالشأن التربوي والتعليمي. لقد تم عمل فصول دراسية لهؤلاء الأطفال داخل القطارات، وفي محطّات التوقّف، ونجحت الفكرة في انتشال آلاف الأطفال من وحل التشرد، إلى نور العلم والمعرفة، ومنح الأطفال الطعام والملابس والدواء بالمجان..ويكفـــي

للدلالة على أهمية هذه المدارس الغريبة، أنه في السنة الأولى لافتتاحها، التحق بها نحو4000 طفل من مختلف أنحاء الهند، وتستخدم وسائل تعليمية غريبة، لجذب الأطفال، مثل الغناء الفلكلوري، والعزف على الآلات الموسيقية الشعبية، وتمثيل المشاهد الدرامية، والاستعانة بصور الكائنات الحية الموجودة في البيئة المحلية، لتعليم القراءة والكتابة..ويسمح للطفل بمغادرة البرنامج الدراسي، والعودة إليه، متى شاء..جدير بالإشارة أن المؤسسة الداعمة لهذا المشروع، التي تدعى (روشيكا)، توسّعت في إنشاء هذه المدارس، بعد أن حققت أهدافها، ودعت أبناء العاملين في مصلحة النقل بالقطارات، وأبناء الأسر الفقيرة للالتحاق بها.

ـ مدرسة غولو الابتدائية، وهي مدرسة صينية غريبة، مقامة في إحدى المرتفعات المحيطة بقرية غولو، من أعمال محافظة هاونين، ولا يمكن الوصول إليها إلاّ عن طريق صخري ضيّق، مليء بالمنحنيات الخطرة.. أسسها معلّم جاء إلى القرية، وعمره 18 سنة، يدعى «شين كوين»، في البداية كانت المدرسة بدائية للغاية، إلاّ أنه بمساعدة أهالي القرية، ودعم الجمعيات الخيرية، أمكن تطوير المدرسة، وأنشئ فيها مرحاض آمن، بعد أن تكررت حوادث سقوط وإصابة الطلاب، أثناء ذهابهم لقضاء حاجتهم في الجبل..وفي هذه المدرسة التي تشبه المخبأ داخل الجبل، أنشئ ملعب صغير، يمارس فيه الطلاب هواياتهم الرياضية.

ـ مدرسة أبو الابتدائية، وهي مدرسة أمريكية، مقامة على هيئة نفق تحت الأرض، أشرف على إنشائها الرئيس جون كينيدي، إبان فترة الحرب الباردة بين بلاده وروسيا، في إطار مساعيه لإقامة مبان حكومية، يمكن استخدامها كملاجئ تحمي المواطنين من هجمات نووية محتملة، وللمدرسة ثلاث مداخل كل منها مؤمّن ببوابة حديدية من الصلب المضاد للانفجار تزن800 كيلو جرام، وجدرانها مصممة بحيث تكون قادرة على مقاومة الإشعاع الناتج عن انفجار نووي بقوّة 20 ميغا طن، وهذه المدرسة التي أقيمت في بلدة (أرنيسيا) بولاية نيومكسيكو، ملحق بها بئر خاصة، مع مولّد كهربائي احتياطي، ومخازن للأدوية والمواد الغذائية،وبرغم هذه التجهيزات والتحصينات، إلاّ أن طلاب هذه المدرسة صاروا يدرسون بشكل طبيعي، ولا يشعرون بأنهم في ملجأ، إلى أن أعلنت الحكومة الأمريكية منذ سنوات قليلة عن إغلاقها، نظرًا لتكلفة صيانتها، وإعادة ترميمها.

مناهج عـجيبة :

شهدت السنوات الماضية، اتجاه بعض المدارس حول العالم، لتقديم مناهج ومواد دراسية غير تقليدية، فمنها ما يقدّم اللباقة وأصول الإتكيت كمادة، على التلاميذ الاجتهاد في دراستها. لقد صار هذا الاتجاه ظاهرة في مدارس اليابان، وبعض المدارس في دول الاتحاد الأوروبي..وفي ولاية تكساس الأمريكية، يمنح أحد معاهدها شهادة في (رعي الأغنام)، وهي مهنة مطلوبة بشكل كبير في تلك الولاية.وكانت وزارة التربية والتعليم في أرمينيا، قد أعلنت أنها سوف تفرض قواعد لعبة الشطرنج، كمادة من المواد الدراسية المقررة على التعليم العام.وفي اكثر من مدرسة إسبانية، أدخلت لعبة الشطرنج ضمن المناهج التعليمية المقررة على التلاميذ.وفي رأي اكثر من خبير تربوي فإن «دراسة الشطرنج، كمادة شقيقة للرياضيات، يساهم في الارتقاء بالقدرات العقلية والتفكير لدى الطلاب».. وفي بعض مدارس ولاية أوهايو الأمريكية، تدرّس «أفلام هاري بوتر»، كتطبيق من تطبيقات أدب الخيال، أو الفانتازيا، حيث إن أفكارًا مثل هذه «تساعد على إعمال العقل، وتوسيع الخيال، للأحداث الغريبة بالأجزاء السبعة للفيلم، إلى جانب تعلّم بعض التقنيات الفنيّة المبهرة».

وفي جل مدارس اليابان، يدرّس «حب الطبيعة»، في جميع مراحل التعليم العام، حيث يقوم الطلاب بخوض تجاربهم الخاصة مع الطبيعة، والاقتراب منها، والعناية بها، كرعاية الأشجار، منذ زراعتها كنبتة، ومشاهدة الرياح، وحساب تقديراتها، وسبل الحفاظ على تلك الموارد الطبيعية.

وفي بعض مدارس الصين، يتم تدريس «ألعاب البزل»، بأشكالها المتعددة، التي تصل عدد القطع فيها إلى 400 قطعة، كمادة شيّقة تعمل على زيادة المهارات العقلية لدى الطلاب في مرحلة التعليم الابتدائي، ويشترط تجاوزها للوصول إلى المرحلة الإعدادية.. ويحرص كثير من المدارس في سويسرا، على تقدم مادة «القمامة، وتدوير النفايات»، ضمن المناهج المقررة على التلاميذ، الذين يتم اصطحابهم إلى حيث مواقع القمامة، بعد أخذ كل احتياطات الأمان والسلامة الصحية، ليتحرّوا ما بها، وكأنهم علماء يبحثون عن كنز مفقود، والمستهدف من ذلك تربية التلاميذ على التعامل الصحيح مع النفايات، وتصنيفها، وسبل التخلّص الآمن منها، أو تجميع ما يمكن تدويره وإعادة تصنيعه.. وتهتم عدة مدارس في أستراليا، خاصة في أدنبرة وملبورن، بتدريس مادة حول «علوم الفضائيين»، تستهدف إثارة اهتمام وفضول التلاميذ حول احتمالات وجود حياة خارج سطح كوكب الأرض، وما هو شكل هذه الحياة أن وجدت، ومدى الذكاء الذي يمكن أن تتمتع المخلوقات الفضائية، وكيف يمكن التعامل مع هذه الكائنات، ومدى حقيقة ما يعرف بالأطباق الطائرة.

وفي المراحل المتقدّمة من التعليم ما فوق الثانوي، تزداد عجائب المناهج الدراسية، خذ هذه الأمثلة:

في ولاية كانساس الأمريكية، ظهرت كليّات بها قسم خاص بمخابز الحلويات، يتعلّم فيه الطالب فن اختراع وابتكار حلويات جديدة، وهو تخصص أصبح مطلوبًا بشدة في المخابز الشهيرة حول العالم.

في جامعات مثل كوين وشارلوت وفلوريدا، استحدث قسم خاص لفن إدارة ملاعب الجولف.

في جامعة ميسيسيبي، استحدثت كلية متخصصة في علم تنسيق وبيع الزهور، يتعلّم الطلاب فيها فن تنسيق الزهور مع بعضها البعض، وكيفية تسويقها.

في جامعة تكساس، التي هي من أشهر وأعرق الجامعات في العالم، تدرس (اللغات المبتكرة)، كمادة أساسية لطلبة أدب الخيال العلمي، وتأتي لغة (كلينجون)، في مقدّمة هذه اللغات، وهي لغة مبتكرة استخدمتها الكائنات الفضائية في الفيلم الشهير ستار تريك، وتستهدف الجامعة من تقديم هذه المادة «مناقشة الأفكار المتعلّقة بالنظرية اللغوية، وتفاعل اللغة مع المجتمع».

في جامعة ستانفورد، يدرس الطلاب مادة تتكون من مقالات وموضوعات حول طرق اختيار لاعب كرة القدم الشهير بيكهام، لتصفيفات شعره، وتغييره لها، وطبيعة زواجه من فيكتوريا بيكهام، وتستغرق دراسة هذه المادة 12أسبوعًا، وهي تندرج تحت المواد التي يجب دراستها للحصول على درجة البكالوريوس في الرياضيات والإعلام والثقافة.79

[79] عن مجلة المعرفة عدد:241.

بريد القــراء

إعداد المحرّر



فور صدور العدد الاول من المنتدى الادبي توالت على المجلة التهاني و التبريكات من الإخوة القراء والمبدعين والادباء والمثقفين تحمل رسائل مفعمة بالمودة والتشجيع ، وتحمل إلينا الدعم المعنوي الذي استقبلناه بوافر الاعتراف والامتنان.... وإن كانت لمغلب المراسلات التي وصلتنا عن طريق المراسلات الصوتية او عن طريق شبكات ال تواصل الاجتماعي إلاان بعضها وصل إلى المجلة عن طريق بريد القراء ضمن موقع المجلة القلر الذي نعمل جاهدين لإعداده وتطويره بما يناسب المجل ويحقق الفائدة ، وقد ارتاينا ان ننقل للسادة القراء بعضا مما وصلنا مرفوقا بردود إدارة التحرير.

المحرّر

إلى السيد رئيس مجلة المنتدى الأدبي....بعد التحية سعدت أيما سعادة وأنا أتصفّح العدد الأول من مجلّتكم الأدبية وهو باكورة هذا المشروع فوجدته أشهى من الشهيّ وألذ من اللذيذ ورحت أتجوّل في مغانيه ورياضه ، فزالت وحشتي وتلاشت أحزاني ووجدت نفسي في عالم بحثت عنه وطلبت الرحيل إليه فما وجدت التذكرة....أيّها الفاضل أستاذنا الكريم جيلاني ضيف أراسلكم والواجب يدفعني إلى الاعتراف بأنكم حملة راية ستحطّم هذا الجمود وتزيل هذا الكساد وتبعث في الزمان والمكان ريح الأدب الراقي والإبداع الصحيح....كنت أحسبها كغيرها من المجلات لكنني تصفّحتها ببصر رائق وفكر حاضر فوجدتها تسير في غير وجهتهم.اسمح لي سيدي الكريم أن أقدم لكم أصدق التهاني والتبريكات داعيا لكم بالنجاح والتوفيق ، وإن كنت أدرك أن الطريق شاقّ ووعر ومحفوف بالتحديات الجسام....لقد أهديتنا الخلاص في زمن الشدّة ومنحتنا الأمل عندما اسودّت حياتنا وجعلتنا نشعر بشيء مما ترسّب في نفوسنا من الأمل....وليس غريبا عنكم أيها الأستاذ الكريم الذي لم نلتق به وإنما عرفناه من خلال إصداراته أن تكونوا بهذه الحمية والانتصار للسان العربي والأدب الجميل....أشكركم سيدي وأتمنى لكم الديمومة والاستمرار وكلّ عدد وأنتم متميزون

نبيل سميقلي من بريكة..

شكرا لك نبيل.نقدّر هذه المشاعر وهذا الموقف.....رئيس التحرير ________________

المقال الذي كتب عن الأدب الجزائري يبدو صاحبه متشائما من واقع هذا الأدب وقد خرج عن الموضوع تماما عندما انطلق يتحدث عن اللغة العربية وانتشار العامية...نعتقد أن موضوعا كهذا يحتاج إلى دربة وأهلية واختصاص..تمنينا لو أنّ المعالجة كانت أعمق... بختي سمــير

نشكرك على التعقيب...المقال مأخوذ من مجلّة أصوات الشمال وهو ضمن ركن //مجاني الأدب //وعنوان الركن يكشف طبيعة المواضيع المدرجة...عمّا جاء فيه لا يمكننا التدخل نيابة عن كاتبه أو الحديث باسمه ، وإن كنا نرى نوعا من التحامل في كلامك....نرّحب بك قارئا وناقدا...

رئيس التحرير________________________

الأستاذ ضيف بعد واجب التحية...هل لي أن أسألكم لماذا لم تخصصوا ركنا للمواهب الشابة أقصد طلبة الثانوي والمتوسط فهناك مواهب في الكتابة تبشّ ر بمشاريع أدباء
وشعراء ولا شكّ أن المجلة ستكون مفيدة أكثر وذات خدمة إيجابية لو تفكرون في هذا الاقتراح..

معكم شنقلي رياض من المسيلة

اقتراح بنّاء ووجيه نشكر الأخ رياض ونعده بذلك متى أتيحت لنا الفرصة وأمكن ذلك... نرحّب به وبكل الأحبة في الحضنة وعاصمتها..دمتم للمجلة..

ملاحظة في الصميم..نعتذر للجنس اللطيف ونقول : لم نجد من بنات حوّاء من تريد المشاركة... وبما أنه العدد الأوّل فقد تعدّر علينا البحث والاتصال بالمبدعات...من خلال هذا العتاب نوجّه رسالة إلى كل المبدعات للإسراع في المشاركة في العدد الثاني....نجدّد لك الشكر ونعدك بتدارك الخطأ والتقصير...

رائعة هذه المجلة.....تنقصها اللمسة اللطيفة لأنامل بنات حواء....أتمنى أن تؤخذ الملاحظة بعين الاعتبار...

نسيمة المبدعة.

ملاحظة في الصميم..نعتذر للجنس اللطيف ونقول : لم نجد من بنات حوّاء من
تريد المشاركة... وبما أنه العدد الأوّل فقد تعدّر علينا البحث والاتصال بالمبدعات...من خلال هذا العتاب نوجّه رسالة إلى كل المبدعات للإسراع في
المشاركة في العدد الثاني....نجدّد لك الشكر ونعدك بتدارك الخطأ والتقصير رئيس التحرير________________________

الإخوة في مجلّة المنتدى الأدبي...لقد فتحتم لنا النافذة على مصراعيها لنتنفّس قليلا فقلوبنا مأسورة وأقلامنا مقيدة ومكبّلة...نأمل أن تكون المنتدى كما نرسمها في خيالنا...فضاء إبداعيا للجميع وليس للأسماء التي وضعت أقدامها على الطريق منذ مدّة...تقبّلوني ضيفا وقارئا ومستقبلا سأتشرف بأن أقرأ اسمي في مجلتكم الموقرة..

سعيد بن حملي ________________ أخي الفاضل بن حملي.... مرحبا بك بالصفة التي تشاء..المجلّة كانت ولا تزال ـ واقعا وحقيقة ـ تسعى إلى غاية أسمى وهي أن تكون فضاء لكلّ من يريد أن يبدع..لا نؤمن بالأصنام والآلهة الأدبية .أبوابنا وصفحات مجلّتكم مشرعة..ما عليك إلاّ أن تبدع وتقدّم....نحن ننشر لكل راغب مهما بلغ ومهمن كان..رئيس التحرير

الأديب الفاضل جيلاني ضيف من الجزائر......كم أثلج قلبي وقرّ عيني أن يلفظني الفضول فأرتمي على شاطئ منتداكم الأدبي لتتلقّفني هذه المجلّة الراقية مضمونا...كنا نحسب أن هذا القطر بوار وخلاء مما يعتبر أدبا..عدا ما يظهر باللغة الفرنسية ، غير أنني أدركت الحين أن الجزائر حبلى وولود لأنها أنجبت هذه المواهب وهـــــــــــذه

الأقلام...سيدي الكريم...أحمل إليكم من ضفاف دجلة التحية العراقية المعطّرة بعبق الكلمات وأستسمحكم أن تفسحوا لي مجالا لأشارك أبناء الجزائر الحبيبة هذا الزخم الأدبي....تحياتي للجزائر الحرّة الأبية الصامدة ورجالها الأشاوس وبالخصوص سعادة رئيس التحرير. ..

علاء الأنصاري

رئيس التحرير ــــــــــــــــــــــــــــــ

الأخ والشقيق في العروبة والشغف بالحرف العربي حمدا لله لأنّ مجلّتنا المتواضعة بلغت عندك هذا المبلغ أولا....ومرحبا بك وبكل عربيّ ثانيا وبالخصوص إذا كان من عراقنا الأشمّ... أمّا عن اعتقادكم بأن الجزائر أرض بور ولا أدب فيها فهذا أمرٌ لا تُلام فيها الجزائر ، وإنما العتبكلّه واللوم يحمل أوزارهما الذين شوّهوا صورتها وعتّموا واقعها من الإخوة في المشرق العربي من خلال كتاباتاهم ومن خلال تقصيرهم في الاطلاع والإحاطةفهذه الأرض سيدي الكريم أنجبت أعظم الشعراء وا أكثرهم موهبة وعبقرية ولا أدل على ذلك من شاعر الثورة وعبقريّها مفدي زكريا.والإبراهيمي الخطيب المفوّه والعلامة اللغوي الذي كان يخرس المتفوهين باللسان العربي....الجزائر أنجبت العبقرية في مختلف عصورها وكان لها ولا يزال مواهب ونخب رائدة...وستكشف لك الأيام وبعض المراجع التي سنعرضها في موقعنا تحت رافد مكتبتنا ذلك.

المهم مرحبا بك وبكل الأشقاء رئيس التحرير ــــــــــــــــــــــــــــــ

بسم الله الرحمن الرحيم

المنتدى الأدبي أثبت بما لايدع مجالا للشك بأنّ الموهبة الحقة إذا تلا قحت مع الإرادة الجادّة أثمرا عملا مميّزا ، ولا أدلّ على ذلك من هذه المجلّة التي وإن بدأت هكذا فأنا واثق أنها ستتميز يوما بعد آخر...التقدير والإعجاب للمشرف عليها.

عليوي المختار

رئيس التحرير : شكرا ..لنا الشرف ولكم الفضل ــــــــــــــــــــــــــــــ

نقلا عن موقع المجلّة.......

من بساتين العربية

ـ بلسانه سبق ملك الموت :

كان بَعْضهم ولد نحوي يتقعر في كلامه فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموتِ فَاجتمع عَلَيه أولادُهُ وقالُوا له : ندعو لك فلانا أخانا ؟!

قال : لا ؛ إن جاءني قتلني!!

فقالوا : نحن نوصيه أن لا يتكلم.. فدعوه ؛ فلما دخل عليه قال له : يا أبت قل " لا إليه إلا الله تدخل بها الجنة وتفوز من النار يا أبت و الله ما أشغلني عنك إلا فلان فإنه دعاني بالأمس فأهرس وأعدس واستبذج وسكبج وطهبج وأفرج ودجج وأبصل وأمضر ولوزج وافلوزج"!!!

فصاح أبوه : غمضوني فقد سبق ابن .... مَلكَ الموت إلى قبض روحي.

ـ " رجليه وركبتيه " !!

جاء نحوي يعود مريضا فطرق بابه فخرج إليه ولده فقال : كيف وجدت أباك ؟

ـ قال يا عَمُّ وَرِمَت رجليه... قال: لا تلحَنْ قُلْ رجلاه ..

ثم ماذا ؟ قال: ثم وصل الورم إلى ركبتاه!!

قال: لا تلحَنْ قل إلى ركبتيه...!!

ثم ماذا ؟ ـ قال : مَات وأدخلَهُ الله في بَطْرِ عيالك وعيال سيبويه ونفطويه وبحشويه!

نصيحة نحوية تحرق جبّة !...

قال نحويٌّ لابنه: إذا أردت أن تتكلم بشيء فاعرضه على عقلك و فكر فيه بجهدك حتى تقوّمه، ثم أخرج الكلمة مقومةً. فبينما هما جالسان في الشتاء و النار مشتعلة وقعت شرارة في جبته وهو غافل عنها والابن يراه، فسكت ساعةً يفكر ثم قال: يا أبت أريد أن أقول لك شيئا، أفتأذن لي فيه ؟

ـ قال أبوه: إن حقًّا فتكلم.

ـ قال: أراه حقا.

ـ فقال: قل ، قال:إني أرى شيئًا أحمر على جبـَّتك..

ـ قال: ما هو ؟

ـ قال: شرارة وقعت على جبتك ،فنظر أبوه إلى جبته و قد احترق منها جزء كبير ...

فقال للابن : لماذا لم تعلِمْني به سريعا ؟

قال: فكرت فيه كما أمرتني ، ثم قوَّمت الكلامَ و تكلَّمت به، فنهره و قال له: لا تتكلم بالنحو أبدا.

عن الصبر والرضا بالقضاء والقدر...

طلب الخليفة الوليد بن عبدالملك عروة بن الزبير لزيارته في دمشق مقر الخلافة الأموية , فتجهز عروة للسفر من المدينة النبوية إلى دمشق واستعان بالله وأخذ أحد أولاده معه (وقد كان أحب ابنائه السبعة إليه) وتوجه إلى الشام ، فأصيب في الطريق بمرض في رجله أخذ يشتد ويشتد حتى أنه دخل دمشق محمولاً لم يعد لديه قدرة على المشي .

انزعج الخلفية حينما رأي ضيفه يدخل عليه دمشق بهذه الصورة فجمع له أمهر الأطباء لمعالجته ،فاجتمع الأطباء وقرروا أن به الآكلة [80] وليس هناك من علاج إلا بتر رجله من الساق ، فلم يعجب الخليفة هذا العلاج، ولسان حاله يقول (كيف يخرج ضيفي من بيت أهله بصحة وعافية ويأتي

إلي أبتر رجله وأعيده إلى أهله أعرجًا (لكن الأطباء أكدوا أنه لا علاج له إلا هذا ولا سرت إلى ركبته حتى تقتله ، فأخبر الخليفةُ عروةَ بقرار الأطباء ، فلم يزد على أن قال (اللهم لك الحمد!!) .

اجتمع الأطباء على عروة وقالوا : اشرب المرقد . فلم يفعل وكره أن يفقد عضواً من جسمه دون أن يشعر به . قالوا : فاشرب كاسًا من الخمر حتى تفقد شعورك .فأبى مستنكراً ذلك ، وقال : كيف أشربها وقد حرمها الله في كتابه . قالوا : فكيف نفعل بك إذاً ؟!؟! قال : دعوني أصلي فإذا أنا قمت للصلاة فشأنكم وما تريدون !!

(وقد كان رحمه الله إذا قام يصلي سهى عن كل ما حوله وتعلق قلبه بالله تعالى) .

فقام يصلي وتركوه حتى سجد فكشفوا عن ساقه وأعملوا مباضعهم في اللحم حتى وصلوا العظم فأخذوا المنشار وأعملوه في العظم حتى بتروا ساقه وفصلوها عن جسده وهو ساجد لم يحرك ساكنًا وكان نزيف الدم غزيراً فأحضروا الزيت المغلي وسكبوه على ساقه ليقف نزيف الدم ، فلم يحتمل حرارة الزيت ، فأغمي عليه .

في هذه الأثناء أتى الخبر من خارج القصر أن ابن عروة بن الزبير كان يتفرج على خيول الخليفة , وقد رفسه أحد الخيول فقضى عليه وصعدت روحه إلى بارئها!!

فاغتم الخليفة كثيراً من هذه الأحداث المتتابعة على ضيفه ، واحتار كيف يوصل له الخبر المؤلم عن انتهاء بتر ساقه ، ثم كيف يوصل له خبر موت أحب أبنائه إليه .

ترك الخلفية عروة بن الزبير حتى أفاق ، فاقترب إليه وقال : أحسن الله عزاءك في رجلك .

ـ فقال عروة : اللهم لك الحمد وإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

---

[80] الآكلة أي الغرغرينا، لأنها تأكل الأعضاء .

ـ قال الخليفة : وأحسن الله عزاءك في ابنك .

ـ فقال عروة : اللهم لك الحمد وإنّا لله وإنّا إليه راجعون ، أعطاني سبعة وأخذ واحداً ،وأعطاني أربعة أطراف وأخذ واحداً ، إن ابتلى فطالما عافى ، وإن أخذ فطالما أعطى ، وإني أسأل الله أن يجمعني بهما في الجنة.

ثم قدموا له طستًا فيه ساقه وقدمه المبتورة قال : إن الله يعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط وأنا أعلم .

بدأ عروة رحمه الله يعود نفسه على السير متوكئًا على عصى ، فدخل ذات مرة مجلس الخليفة ، فوجد في مجلس الخليفة شيخًا طاعنًا في السن مهشم الوجه أعمى البصر ، فقال الخليفة : يا عروة سل هذا الشيخ عن قصته .

ـ قال عروة : ما قصتك يا شيخ ؟

ـ قال الشيخ : يا عروة اعلم أني بت ذات ليلة في وادٍ وليس في ذلك الوادي أغنى مني ولا أكثر مني مالاً وحلالاً وعيالاً ، فأتانا السيل بالليل فأخذ عيالي ومالي وحلالي ، وطلعت الشمس وأنا لا أملك إلا طفل صغير وبعير واحد ، فهرب البعير فأردت اللحاق به ، فلم أبتعد كثيراً حتى سمعت خلفي صراخ الطفل فالتفتُ فإذا برأس الطفل في فم الذئب فانطلقت لإنقاذه فلم أقدر على ذلك فقد مزقه الذئب بأنيابه ، فعدت لألحق بالبعير فضربني بخفه على وجهي ، فهشم وجهي وأعمى بصري !!!

قال عروة : وما تقول يا شيخ بعد هذا ؟

فقال الشيخ : أقول الله لك :الحمد ترك لي قلبًا عامراً ولسانًا ذاكراً .



الهدية رمز المحبّة وعنون الودّ الصادق ، والهدية ثقافة الذين يعرفون الطرق التي توصل إلى القلوب ويجيدون التواصل معها ، لذا فإن منتدانا لن يدعكم تغادرونه إلاّ وأنتم تحملون هديّة..وأيّ هدية..إنها عصارة الفكر الإنساني ورسالة النبوغ البشري في مجال الإبداع الأدبي ، وهديتنا اليوم رسالة كاتب عربيّ وأديب من رواد وأقطاب الكتابة العربية إنه مصطفى صادق الرافعي أرسلها لشخص ..استقصاه عن الآلية التي تمكنه أن يصير أديبا....ولا شكّ أنّ الرسالة وإن مضى عليها أزيد من قرن ففيها ما يروق ويفيد...[81]

81 الرسالة مأخوذة من رسائله إلى محمود أبي ريّة.



طنطا في 30 ديسمبر سنة 1912

أيّها الفاضلُ :

إنّ أعمالي كثيرةٌ في هذه الأيامِ ولذا أراني أبطأتُ في الردِ على كتابكَ ، وإنّي مجيبك عنهُ بإيجازٍ ، لأنّ ما سألتَ عنهُ يصعبُ التبسّطُ فيهِ على وجهٍ واحدٍ.

إنّكَ تريدُ امتلاكَ ناصيةِ الأدبِ – كما تقولُ - ، فينبغي أن تكونَ لكَ مواهبُ وراثيةٌ تؤديكَ إلى هذه الغايةِ ، وهي مالا يُعرفُ إلا بعدَ أن تشتغلَ بالتحصيلِ زمنًا ، فإن ظهرَ عليكَ أثرها وإلا كنتَ أديبًا كسائرِ الأدباءِ ، الذينَ يستعيضونَ من الموهبةِ بقوّةِ الكسبِ والاجتهادِ .

فإذا رغبتَ في أقربِ الطرقِ إلى ذلكَ فاجتهدْ أن تكونَ مفكّراً منتقداً ، وعليكَ بقراءةِ كتبِ المعاني قبلَ كتبِ الألفاظِ ، وادرسْ ما تصلُ إليهِ يدكَ من كتبِ الاجتماعِ والفلسفةِ الأدبيةِ في لغةٍ أوربيةٍ أو فيما عرّبَ منها .

واصرف همّكَ من كتبِ الأدبِ العربي – بادىء ذي بدءٍ – إلى كتابِ كليلةٌ ودمنة والأغاني ورسائلَ الجاحظِ وكتابَ الحيوانِ والبيانِ والتبيين لهُ ، وتفقّه في البلاغةِ بكتابِ " المثلِ السائرِ " ، وهذا الكتابُ وحدهُ يكفلُ لكَ ملكةً حسنةً في الانتقادِ الأدبي ، وقد كنتُ شديدَ الولعُ بهِ.

ثمّ عليكَ بحفظِ الكثيرِ من ألفاظِ كتابِ " نُجعةِ الرائدِ "لليازجي والألفاظِ الكتابيّةِ للهمذانيّ ، وبالمطالعةِ في كتابِ " يتيمةِ الدهرِ " للثعالبّي والعقدِ الفريدِ لابن عبدربه وكتابِ "زهرِ الآدابِ " الذي بهامشهِ .

وأشيرُ عليكَ بمجلّتينِ تُعنى بقراءتهما كل العنايةِ " المقتطف والبيان " ، وحسبكَ " الجريدةُ من الصحفِ اليومية و " الصاعقة " من الأسبوعية ، ثم حسبكَ ما أشرتُ عليكَ بهِ فإنّ فيهِ البلاغ كلّهُ ، ولا تنسَ شرحَ ديوانِ الحماسةِ وكتابَ نهجِ البلاغةِ فاحفظْ منهما كثيراً . و رأسُ هذا الأمرِ بل سرّ النجاحِ فيهِ أن تكونَ صبوراً ، وأن تعرفَ أن ما يستطيعهُ الرجلُ لا يستطيعهُ الطفلُ إلا متى صارَ رجلاً ، وبعبارةٍ صريحةٍ إلا من انتظرَ سنواتٍ كثيرة .

فإن دأبتَ في القراءةِ والبحثِ ، وأهملتَ أمرَ الزمنِ – طالَ أو قصرَ – انتهى بكَ الزمنُ إلى يومٍ يكونُ تاريخًا لمجدكَ ، وثوابًا لجدّكَ .

والسلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ .

الرافعي

من مجـاني الويب

لماذا تستأثر العاصمة باحتضان المعرض الدولي للكتاب ؟ [82]

سُؤال طرح نفسه، قبل أن يطرحه كثيرون من مُثقفي الجزائر، وأساتذتها وطلابها، والأصّح أن نتساءل لماذا بقيت هذه التظاهرة الثقافية الدولية حكرًا على العاصمة دون غيرها من المدن الجزائرية، ألا يوجد مكانا آخر لتنظيم هذا المعرض؟ أ ضيقةٌ بلادنا ليقتصر تنظيمه على مدينة واحدة فقط؟

من المعروف أن دولة الجزائر تتربع على مساحة تقدر بأكثر من مليوني كلم2، وتتوفر على ثمانية وأربعين ولاية إدارية، منها الولايات الصغرى والكبرى، مثل ولاتي: وهران وعنابة، وغيرهما، فلماذا لا يُنظّم المعرض بتلمسان أو قسنطينة مثلا؟ أو ولايات أخرى من الجنوب الجزائري كالجلفة أو البيض؟

يتفق كثيرون على أن إقامة المعرض الدولي للكتاب في العاصمة فقط دون غيرها من المدن الجزائرية، أصبح هاجسا كبيرا يُرهق الجزائريين، عاما بعد عام، ويُفوت الفرصة على باحثين كُثر لزيارته..والسبب يرجع إلى الازدحام الكبير التي تشهده العاصمة في السنوات الأخيرة، إذا ما علمنا أن الجزائر هي العاصمة السياسية والاقتصادية للبلاد. بالإضافة إلى نقص مرافق الإقامة بها وصعوبة التنقل بين شوارعها، وحتى وإن وُجدت – هذه المرافق – فتبقى قليلة جدا مقارنة مع زوار المعرض، كما أنها باهظة الثمن ولا يقدر على تكاليفها الموظفون من الزوار، فما بال الطلاب والتلاميذ الذين لا أجرة لهم، إلا ما خصّصوه من ميزانيتهم لشراء بعض الكتب من المعرض.

إن إقامة المعرض في ولاية أخرى من الولايات الجزائرية، قد يكون فرصة سانحة لزيارة هذه الولاية للكثير من الجزائريين من جهة، والدفع بعجلة تنميتها ثقافيا واقتصاديا وسياحيا من جهة أخرى..وهذا من شأنه أن يفك الضغط المفروض على العاصمة التي باتت لاتستوعب كل ما يُنظّم في أرجائها، فنكون بذلك قد ضربنا عصفورين أو أكثر بحجر واحد، ولِمَ لا نقتدي بالدول المتقدمة التي سبقتنا في الأمور التنظيمية في جميع الميادين، نذكر على سبيل المثال دولة تركيا حين حولّت عاصمتها السياسية من اسطنبول إلى أنقرة وأبقت على هذه الأخيرة عاصمة سياحية تستقطب الملايين من السياح سنويا.

[82] عن جريدة الأيام الجزائرية...2015/11/08.



الكلمة الأخيرة

عن أخلاق بعض الأدباء والمثقفين..

نوع من الخيبة انتابني عندما شخصت إلى واقع ثقافتنا ومثقفينا ، هذه الخيبة التي ولدت وترعرعت واكتسبت شناعتها من سلوك وتصرفات كثير ممن يسمون أنفسهم مثقفين وأدباء...

قد يعتبر أحدهم هذا الحديث ضربا من الثرثرة التي لا طائل منها ، والتي لا يمكنها أن تحقق شيئا من الفاعلية والجدوى... لأن هؤلاء يعتبرون أنفسهم فوق العادة ، وفوق الملاحظات والتقييمات ، وأن مجرد انتمائهم للعوالم الإبداعية يعطيهم الحصانة والمنعة ، فتقصر الألسن وتشل الأنامل وتتعطل الآلة النقدية عن بلوغهم والنيل منهم...

من خلال تعاطي وتملي لواقع هؤلاء ، وجدت كثيرا منهم أحوج إلى الشفقة والمواساة...لأنهم بالصراحة المطلقة غير المنقوصة...مرضى .. أشخاص سيكوباتيون يحتاجون إلى من يسمع شكواهم وأناتهم المعبرة عن وجعهم.... هذا الوجع الذي يحرك فيهم ذواتهم الملهمة فتبدع...وتبدع وتظل تبدع..

ولا غرو، لأنهم بشر والبشر شرقت نفوسهم وصيغت بذات الطريقة والنمطية ، لا يختلف الشاعر عن الحلاق ولا الروائي عن الدلال في السوق الأسبوعية... لذا كان طبيعيا أن تمحو المواقف وتبدد مساحيق التكلف واصطناع كاريزما المبدع أو المثقف بمجرد أن يعايش أحدهم الناس ويتعامل معهم....

لقد تعاملت مع أعداد من مثقفينا المبدعين باختلاف مستوياتهم ومواقعهم المهنية تعاملا ينطلق من قناعاتي الشخصية، بأن الإبداع يزرع في ثنايا النفس

إنّ الأمّة التي لا تملك أدبًا وثقافة ليست أمّة وإنّما هي قطعان من الآدميين الفوغائيين ومصيرها الفناء بلا أثر.........المنتدى

البشرية أخلاقا وطباعا ومبادئ هي ما يشكل اللون السلوكية.....

وإذا كان هناك من يرفض هذا التشخيص أو التنظير الذي يجعل المبدع محصورا في قالب سلوكي معين كما لو أنه روبوت... فإنه محق إلى حد بعيد...

وجدت عيوب المثقفين ومن يسمون أنفسهم أدباء ومبدعين أكثر تعقيدا ودناءة وقذارة من عيوب عامة البشر وحتى غير المتعلمين منهم...

أن يكذب الناس العاديون خطأ جسيم لكن أن يكذب المبدع والمثقف فهذه كبيرة أو خطيئة لا يكفر عنها... لأن الجناية مضاعفة ، ولأن سلوك المثقف يصبح أداة للمحاججة وخنجرا مسموما يطعن به كل ما هو ثقافي...

أن ينافق المبدع شاعرا أو روائيا أو كاتبا... ويتملق ويتزلف للحثالة البشرية المتحكمة في منافذ الظهور والعبور جريمة عظمى..لا يعادلها إلا جريمة المتاجرة بالأدب والثقافة في سوق النخاسة....

مؤلم جدا ومحزن ومدمٍ للقلب أن ينزل كثير من مثقفينا إلى هذه المستويات المنحدرة البدائية المنافية للفطرة الإنسانية...

وأشد إيلاما من ذلك أن يسوقوا بذاءاتهم العقدية ومزاعمهم وتدليسهم من خلال ما قد يظنون بأنها إبداعات....

إنني مستاء جدا وآسف لهذه المستويات المتردية التي تطبع سلوك مثقفينا....إن تجوزنا واعتبرناهم كذلك....

الكذب..الرياء....التدليس....الغرور..... الخبث...المكيدة....التعالي.....الخ قائمة ليست بالقصيرة لمجموعة من الأمراض والعلل التي تهدد الأدب والثقافة ، لأنها تنبع جميعا من دونية النفس البشرية ، وغلبة سلطان الذاتية العمياء....

وإذا كان يفترض في الأدباء والمثقفين أن يكونوا نخبة رائدة وموجهة ، فالظاهر والملموس أن العكس هو ما يسري اليوم ، وهو أن من يسمون أنفسهم بالمثقفين والأدباء المبدعين تحرروا من القيمة السلوكية الخيرة وكأن الأديب لا يكون كذلك إلا إذا تميز بدمغة النفاق والتملق والانحدار إلى المستويات الدنيا سلوكا وتصرفا...

إنني مع الألم الذي يشاركني فيه بعضكم أصرخ وأرفع العقيرة عاليا وأقول :

اِرقوا أيها الناس .... وارتفعوا بالأدب والثقافة مظهرا وسلوكا قبل أن تكتشف كذبتكم الكبرى من قبل الذين تسوقون أدبكم وثقافتكم في أسواقهم ...

كونوا نخبة في واقعكم وحياتكم قبل أن تكونوا على ورقكم وصحائفكم....

جيلاني ضيف







يتجدد اللقاء العدد القادم أواخر شهر مـاي...

نحن في انتظار مشاركاتكم وانتقاداتكم...

المجلة منكم وإليكم